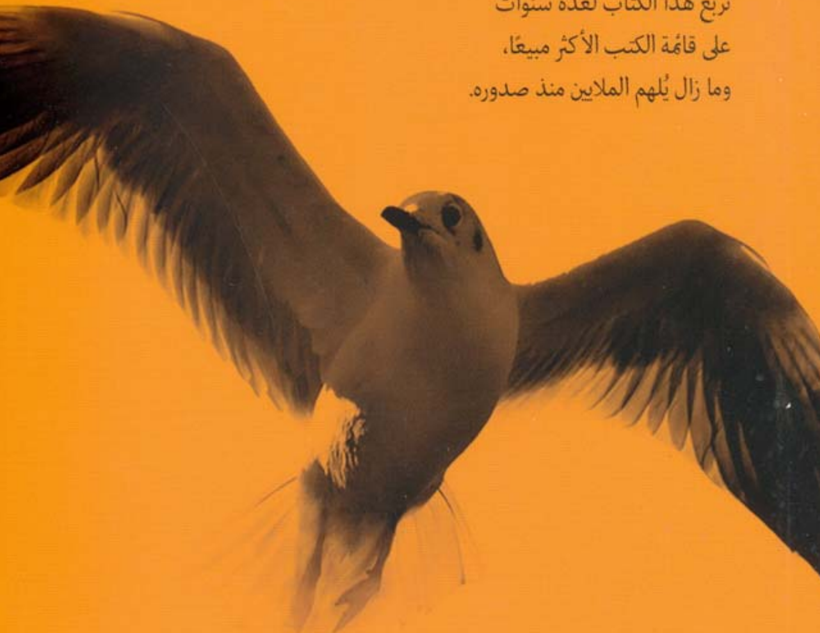
تربّع هذا الكتاب لعدة سنوات
على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا،
وما زال يُلهم الملايين منذ صدوره.



ريتشـــارد باخ

النـورس جـونـاثـان ليفنجسـتون

رواية

ريتشارد باخ

النورس جوناثان ليفنجستون

رواية

ترجمها عن الإنجليزية

محمد عبد النبي

الكرمة

النورس
جوناثان
ليفنجستون

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

باخ، ريتشارد.
النورس جوناثان ليفنجستون: رواية / ريتشارد باخ؛ ترجمة محمد عبد النبي – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٦.
١٠٤ ص؛ ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467606
١– القصص الإنجليزية.
أ – عبد النبي، محمد (مترجم).
ب – العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٩٠٠٠/ ٢٠١٦

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

إلى النورس جوناثان الحقيقي،

الذي يحيا بداخلنا جميعًا.

المحتويات

الجزء الأول

كان الوقت صباحًا،

والشمس الوليدة تنثر الذهب على مويجات بحرٍ وديع.

على بُعد ميل من الشاطئ بدأ أحد قوارب الصيد يُلقي الطعم في المياه للأسماك، وبسرعة البرق سرى في الهواء خبر حلول وقت فطور السِّرب، وفي الحال احتشد ألف نورس وراحت تراوغ وتقاتل للحصول على مزق وفتات الطعام. كانت بداية يوم آخر مشحون بالعمل.

ولكن بعيدًا عن هذا كله، ومنفردًا بنفسه تمامًا، فيما وراء القارب والشاطئ، كان النورس «جوناثان ليفنجستون» يتدرب. على ارتفاع مائة قدم في السماء، خفض قدميه ذواتي الوترات، ورفع منقاره، وكافح للاحتفاظ عبرَ جناحيه بانحناءة ملتوية، انحناءة صعبة ومؤلمة. كان هدفه منها أن يطير ببطء، فتباطأ حتى صارت الريح مثل همسة في وجهه، وسكنَ المحيط ثابتًا من تحته. ضيَّق عينيه في تركيز بالغ، وكتمَ أنفاسه، وجهدَ ليتقوَّس

أكثر، ولو بمقدار بوصة... واحدة... أخرى... بوصة واحدة... عندئذٍ انتفشَ ريشه، وتجمَّد جسده ثم هوى.

كما تعلمون، لا ترتبك النوارس هكذا في طيرانها أبدًا، ولا تهوي هكذا أبدًا. بالنسبة لها لا يعني السقوط في الهواء سوى الخزي والمهانة.

غير أن النورس «جوناثان ليفنجستون» ـ الذي بسط جناحيه من جديد من دون شعور بالخزي، ليؤدي تلك الانحناءة المرتعشة العسيرة، ببطء، ببطء، فتجمد وهوى مرة أخرى ـ لم يكن طائرًا عاديًّا.

أغلب النوارس لا تهتم إلا بتعلُّم أبسط حقائق الطيران ـ أي كيف لها أن تصل من الشاطئ إلى الطعام وتعود من جديد. بالنسبة إلى أغلب النوارس، ليس الطيران هو المهم، بل الأكل. لكن هذا النورس شيء آخر، فعنده لم يكن الأكل هو المهم، بل الطيران. كان النورس «جوناثان ليفنجستون» يحب أن يطير أكثر من أي شيء آخر.

وقد اكتشف أن هذا النوع من التفكير ليس بالوسيلة المثلى لكي تحبه الطيور الأخرى. حتى والديه كان القلق يساورهما عليه، حينما يقضي أيامًا كاملة بمفرده، يقوم بمئات الانزلاقات المنخفضة، يتدرب ويتدرب.

على سبيل المثال، لم يكن يعرف لماذا، حينما يطير فوق الماء على ارتفاع خفيض لا يزيد على نصف طول جناحه، كان بوسعه أن يبقى في الهواء لوقت أطول، وبمجهود أقل. لم تكن انزلاقاته في الهواء هذه تنتهي كما هو معتاد بالغطس في البحر لمسافة قَدَم، وإنما بأثر طويل ممتد على سطح الماء إذ يلامسه بقدميه المشدودتين لتوازن حركة جسده. حينما بدأ يطير منزلقًا وعائدًا للبر، ليحطَّ على الشاطئ، قاسَ والداه مسافة انزلاقه في الرمل، فانتابهما عندئذٍ خوف كبير حقًّا.

سألت أمه:

ـ لماذا يا «جون»؟ لماذا؟ لماذا يصعب عليك كثيرًا أن تكون مثل بقية السرب يا «جون»؟ لماذا لا تترك الطيران المنخفض للبجع وطائر القطرس؟ لماذا لا تأكل؟ لقد صرت ريشًا على عَظم يا بنيَّ!

ـ لا مانع عندي في أن أكون ريشًا على عَظم يا أمي. كل ما أريد هو أن أعرف ما أقدر على فعله وأنا في الهواء، وما لا أقدر على فعله، هذا كل ما في الأمر، أريد أن أعرف وحَسب.

قال والده بنبرة عطوف:

ـ أنصت إليَّ يا «جون»، صار الشتاء وشيكًا، وسوف يقل

عدد قوارب الصيد، وأسماك السطح سوف تغوص عميقًا. إذا كان لا بد أن تدرس شيئًا، فلتدرس الطعام، وكيف تحصل عليه. مسألة الطيران هذه لا بأس بها بالمرَّة، ولكنك لا تستطيع أن تأكل انزلاقًا منخفضًا في الهواء، كما تعلم. إياك أن تنسى أبدًا أنك تطير لتأكل.

أومأ «جوناثان» برأسه في طاعة. وخلال الأيام القليلة التالية حاول أن يسلك مسلك النوارس الأخرى؛ حاول بإخلاص، وأخذ مثلها يصيح ويصارع بقية السرب حول مرافئ الشاطئ وقوارب الصيد، غائصًا في الماء خلف بقايا السمك وفتات الخبز. لكنه لم يشعر بالرضا عن محاولاته.

فكر في نفسه قائلًا: إن الأمر كله بلا معنى ـ بينما يُسقط من فمه، عامدًا، سمكة أنشوجة تعبَ حتى فاز بها، إلى نورس عجوز جائع كان يلاحقه. وتابع: بوسعي أن أقضي كل هذا الوقت في تعلُّم الطيران، فما أكثر ما يجب عليَّ تعلُّمه!

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يبتعد النورس «جوناثان» ويختلي بنفسه من جديد، بعيدًا في داخل البحر، جائعًا، وسعيدًا، ودارسًا ما يجب أن يتعلمه.

كان موضوع الدرس هو السرعة، وفي خلال أسبوع

من التمرُّن تعلم عن السرعة أكثر مما يعرف أسرع النوارس في هذه الحياة.

من إرتفاع ألف قَدم، راحَ يخفق بجناحيه بأقصى جهده، واندفعَ في هبوطٍ حاد ومتقد نحو الموج، فتعلم لماذا لا تقوم النوارس بمثل هذا الهبوط الحاد المتقد. فما هي إلا ست ثوانٍ وصار يتحرك بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، وهي السرعة التي يضطرب فيها جناحا أي طائر في حركتهما للأعلى.

تكرر الشيء ذاته مرة بعد أخرى. ومع أنه كان في غاية الحرص، وأنه اجتهدَ حتى بلغ ذروة قدرته، إلا أنه كان يفقد سيطرته عند هذه السرعة البالغة.

التحليق حتى ارتفاع ألف قدم، ثم الاندفاع بكامل طاقته إلى الأمام أولًا، ثم الرفرفة بجناحيه، منقضًّا للأسفل بوضع رأسي تمامًا. وعندئذٍ، وكما يحدث في كل مرة، كان يتجمَّد جناحه الأيسر ويرتبك في حركته للأعلى، ويدور بعنف جهة اليسار، فيوقف جناحه الأيمن ليستعيد توازنه، فيجد نفسه مقذوفًا كقطعة نار، وهابطًا في دوامة عاتية جهة اليمين.

لم يستطع أن يتوخى الحرص بما يكفي مع حركة بسط الجناحين للأعلى تلك. عشر مرَّات يحاول، وفي كل

مرَّة من العشر، وإذ يندفع بسرعة سبعين ميلًا في الساعة، كان يتحول إلى كتلة عشوائية من الريش المخضوض، فاقدًا كل سيطرة، ساقطًا نحو المياه كالحطام.

وبينما كان يتقطَّر منه الماء، فكر أخيرًا، أن السر لا بد أن يكون في الحفاظ على الجناحين ثابتين عند السرعات العالية ـ أن تتسارع رفرفته تدريجيًّا إلى أن يصل إلى سرعة الخمسين ميلًا، وعندئذٍ يحتفظ بجناحيه ثابتين ساكنين.

وحاول مجددًا من ارتفاع ألفي قدم، منقضًّا في دوران سريع، ومنقاره ممتد إلى الأسفل مباشرة، وقد بسط جناحيه وجمدهما منذ اللحظة التي تجاوز فيها سرعة الخمسين ميلًا في الساعة. اقتضت منه هذه التجربة قوة هائلة، غير أنها نجحت. وفي غضون عشر ثوانٍ اندفع بسرعة تسعين ميلًا في الساعة حتى غشي بصره. لقد حقق «جوناثان» رقمًا قياسيًّا عالميًّا في السرعة بالنسبة إلى النوارس!

غير أن هذا النصر كان قصير الأجل، فما إن شرع ينسحب متراجعًا، ما إن غيَّر زاوية جناحيه، حتى انقذف في لمح البصر إلى تلك الكارثة الرهيبة ذاتها حيث يفقد كل سيطرة على حركته، وإذ كان يطير بسرعة تسعين ميلًا في الساعة فقد صعقته هذه المرَّة وكأنها ديناميت، وكأن

النورس «جوناثان» انفجرَ في الجو وسقط مهشمًا فوق بحرٍ صلب كأن ماءه حجارة.

كان الظلام قد حل منذ وقت عندما استرد وعيه، وراح يطفو في نور القمر على سطح المحيط. كان جناحاه أقرب إلى عيدان مخلخلة من الرصاص، غير أن وطأة الفشل كانت أثقل منها على كاهله. راودته أمنية باهتة لو أن هذا الثقل كان كافيًا ليسحبه برفق للأسفل حتى القاع، فينتهي كل شيء.

وإذ أخذ ينخفض غائصًا في الماء أكثر، تردد في داخله صوت غريب وأجوف: لا حيلة في الأمر. ما أنا إلا نورس، محدود بأوامر الطبيعة. لو كان مكتوبًا لي أن أتعلم الكثير والكثير عن الطيران، لوجدت خرائط ومخططات مرسومة في دماغي. لو كان مكتوبًا لي أن أحلِّق بسرعة بالغة، لولدت بأجنحة قصيرة كأجنحة الصقور، ولكنت أقتات على الفئران لا الأسماك. كان أبي على حق، لا بد أن أنسى هذه الحماقة، ولا بد أن أطير عائدًا إلى البيت، فأنضم إلى السرب وأرضى بما كُتب لي أن أكونه، مثل أي نورس مسكين محدود.

تبدد الصوت شيئًا فشيئًا، واقتنع «جوناثان». المكان المناسب لأي نورس في الليل هو الشاطئ، ومن هذه

اللحظة فصاعدًا، هكذا أقسم، سيكون نورسًا عاديًّا، وسوف يجعل جميع مَن حوله أسعد وأهنأ.

مرهقًا وضجرًا، دفعَ نفسه بعيدًا عن المياه المظلمة وطار باتجاه البر، ممتنًّا لكل ما تعلمه من دروس الطيران الخفيض في أمان.

ولكن كلَّا، هكذا حدَّث نفسه. لقد انتهيتُ من هذه الحكايات كلها، انتهيت من كل شيء تعلمته. ما أنا إلا نورس مثل سائر النوارس، وسوف أطير كما يطير أي نورس منها. وهكذا صعد متألمًا حتى ارتفاع مائة قدم ورفرف بجناحيه بمزيد من القوة، ضاغطًا الهواء أمامه ليبلغ الشاطئ.

شعرَ بأنه أفضل حالًا لقراره بأن يكون مجرد طائر آخر في السرب. لن تشده بعد الآن أية روابط بتلك القوة التي دفعته لأن يتعلم، لا مزيد من التحدي، ولا مزيد من الإخفاق. وكان أمرًا جميلًا، أن يتوقف عن التفكير وحسب، وأن يطير في الظلام، نحو الأضواء التي تعلو الشاطئ.

«الظلام!»، انبعث الصوت الأجوف الأجش منذرًا. «النوارس لا تطير في الظلام أبدًا!».

لم يكن «جوناثان» منتبهًا بما يكفي لينصت إليه. إنه أمر جميل، هكذا فكر. القمر والأضواء تتلألأ على الماء، ملقية نقاط النور هنا وهناك عبر الليل، وكل شيء مفعم بالسكينة والسلام...

«اهبط! النوارس لا تطير في الظلام أبدًا! لو كانَ مكتوبًا لك أن تطير في الظلام لخُلقتَ بعيني بومة! ولكان لك دماغ يرسم ويخطط! ولكانت أجنحتك قصيرة مثل أجنحة الصقر!».

هناك في الليل، وعلى ارتفاع مائة قدم في الهواء، التمعت عينا النورس «جوناثان ليفنجستون». تلاشى ألمه، وتبددت قراراته.

أجنحة قصيرة. أجنحة صقر قصيرة!

تلك هي الإجابة! كم كنتُ أحمق! كل ما أحتاج إليه هو جناح صغير دقيق، كل ما أحتاج إليه أن أطوي الجزء الأكبر من جناحيَّ وأطيرَ معتمدًا على طرفيهما فقط! أجنحة قصيرة!

حلَّق عاليًا لارتفاع ألفي قدم فوق البحر المسود، ومن دون تفكير ولو للحظة واحدة في الإخفاق والموت، ضم أعلى جناحيه بشدة إلى جسده، تاركًا فقط الأطراف

المدببة الضيقة مُشرعة في الريح، وانقض غاطسًا في هبوط عمودي.

كان صوت الريح في رأسه مثل زئير أحد الوحوش. سبعون ميلًا في الساعة، تسعون، مائة وعشرون، بل أسرع من ذلك. إن مقدار جهد الجناح الآن بسرعة مائة وأربعين ميلًا في الساعة ليس شاقًّا بقدر ما كان سابقًا بسرعة السبعين ميلًا، وبمعونة أهون التفافة لأطراف جناحيه أوقف انقضاضه للأسفل بسهولة وانطلق فوق الموج، مثل قذيفة مدفع رمادية تحت القمر.

أغمض عينيه لينزلق في مواجهة الريح وقد غمرته البهجة. مائة وأربعون ميلًا في الساعة! وكل شيء تحت السيطرة! ماذا لو أنني غطست للأسفل من ارتفاع خمسة آلاف قدم بدلًا من اثنين، تُرى كم ستبلغ سرعتي؟

إن وعوده لنفسه، قبل لحظة واحدة، قد صارت كلها نسيًا منسيًّا، كنستها بعيدًا تلك الريح السريعة الجبارة. ومع ذلك فلم يساوره الشعور بالذنب لأنه أخلف الوعود التي قطعها على نفسه، فمثل تلك الوعود تصلح فقط للنوارس التي تتقبل العادي المألوف. أما مَن لامس التفوق في تعليمه فلا حاجة به إلى مثل هذا الوعد.

مع طلوع الشمس، كان النورس «جوناثان» يتدرب

من جديد. ومن ارتفاع خمسة آلاف قدم كانت قوارب الصيد تبدو لعينيه مثل بقع صغيرة في الماء الأزرق السَّاجي، أما سرب الطيور الملتمس فُطوره فبدا مثل سحابة باهتة من ذرات غبار، تدور في موضعها.

كان حيًّا، يرتجفُ بدنه أهونَ ارتجاف من فرط الفرح، فخورًا بأن خوفه كان تحت السيطرة. عندئذٍ ومن دون أي طقوس احتفالية، ضم إليه منابت جناحيه، وفردَ أطرافهما القصيرة حادة الزوايا، وغطس نحو البحر مباشرة. عندما تجاوز الأربعة آلاف قدم كان قد بلغ سرعته القصوى، كانت الريح جدارًا صلدًا من الصوت يقرع ويضرب بشدة، جدارًا لم يستطع النورس إزاءه أن يزيد سرعة حركته. كان يطير الآن للأسفل مباشرة، بسرعة مائتين وأربعة عشر ميلًا في الساعة. ابتلع ريقه، مُدركًا أنه لو انبسط جناحاه وهو يطير بهذه السرعة لانفجر متفتتًا إلى مليون قطعة نورس ضئيلة الحجم. غير أن السرعة كانت قوة، والسرعة كانت بهجة، والسرعة كانت جمالًا خالصًا.

على ارتفاع ألف قدم بدأ انسحابه، بينما ترتطم أطراف جناحيه بتلك الريح الجبارة وتكاد تنطمس فيها، وبدا له القارب وحشد النوارس مثل نيزك يميل ويتسارع ليعترض طريقه مباشرة.

لم يستطع التوقف؛ لم يكن يعرف حتى كيف يمكنه أن يغير اتجاهه وهو بتلك السرعة.

سيكون الاصطدام موتًا خاطفًا.

وهكذا أغمض عينيه.

ما حدث في ذلك الصباح، حينذاك، وبُعيد شروق الشمس، أن النورس «جوناثان ليفنجستون» قد اخترق مباشرة كالسهم مركز سرب الفطور، وقلبه يدق بسرعة مائتين واثني عشر ميلًا في الساعة، بعينيه المغلقتين بشدة، ووسط صياح حاد وزئير هائل لاحتكاك الريح بالريش. هذه المرَّة ابتسم له «نورسُ الحظ»، فلم يهلك بسببه أحد.

عندما مد منقاره للأعلى وصعد نحو السماء مباشرة كان لا يزال يتحرَّق ملتهبًا بسرعة مائة وستين ميلًا في الساعة. وحين أبطأ حتى العشرين ميلًا وفردَ جناحيه من جديد أخيرًا، لم يكن القارب سوى كسرة فتات على وجه البحر، تحته بأربعة آلاف قدم.

كان النصر هو ما يفكر فيه. السرعة القصوى! نورس يطير بسرعة مائتين وأربعة عشر ميلًا في الساعة! كان إنجازًا غير مسبوق، اللحظة الأعظم في تاريخ السرب، وفي تلك اللحظة ابتدأ عصر جديد للنورس «جوناثان».

وبينما كان يطير لمنطقة تدريبه المنعزلة، طاويًا جناحيه ليغطس أفقيًّا من ارتفاع ثمانية آلاف قدم، عقد عزمه في الحال على أن يكتشف كيف يستدير ويغير اتجاهه.

اكتشفَ أنه إذا ما حرك ريشة واحدة في طرف جناحه بمقدار جزء صغير للغاية من بوصة، يعطيه هذا التفافة جارفة وسلسة وسط سرعة هائلة. لكن قبل أن يتعلم هذا اكتشف أن تحريك أكثر من ريشة واحدة بتلك السرعة يجعله يدور حول نفسه مثل قذيفة بندقية... وقد أدى به ذلك إلى أن يكون أول طائر نورس على وجه الأرض يطير طيرانًا بهلوانيًّا.

في ذلك اليوم، لم يبدد أي وقت في الحديث مع النوارس الأخرى، بل واصل الطيران لما بعد الغروب. اكتشف الشقلبة، والدوران البطيء، والدوران حول المحور، والالتفاف العكسي، وضربة النورس، ولُعبة المروحة (الفُرِّيرة).

* * *

عندما لحق النورس «جوناثان» بالسرب على الشاطئ، كان الليل قد حل واكتمل. كان رأسه يدور وفي غاية التعب. ومع ذلك فقد طار مسرورًا طيرانًا لولبيًّا ليحط بالقرب منهم، وقبيل أن يلامس الأرض التف التفافة

خاطفة. قال لنفسه إنهم حينما يسمعون بذلك الإنجاز غير المسبوق الذي حققه سوف تذهب الفرحة بعقولهم. سيدركون أنه توجد الآن أسباب أكثر للحياة! أسباب أخرى غير جرجرة أنفسنا في بلادة ذهابًا إلى قوارب الصيد وعودةً منها. يوجد سبب للحياة! نستطيع أن ننتزع أنفسنا من الجهل! نستطيع أن نجد أنفسنا كمخلوقات ذات تفوُّق وذكاء ومهارة! نستطيع أن نكون أحرارًا! نستطيعُ **أن نتعلم الطيران!**

أشرقت السنوات القادمة بابتسامة الأمل.

كانت النوارس قد احتشدت في «اجتماع المجلس» عندما حط «جوناثان»، ويبدو أنها كانت مجتمعة منذ بعض الوقت. كانت تنتظر في الحقيقة.

ـ أيها النورس «جوناثان ليفنجستون»! تقدَّمْ إلى المركز!

بهذه الكلمات صاح كبيرهم بنبرة رسمية للغاية. أن يتقدَّم نورس ليقف في المركز لا يعني غير أمرين اثنين: إما خزي عظيم، وإما شرف عظيم. الوقوف في مركز السرب للتشريف كان الطريقة التي اتبعها القادة من أسلاف النوارس في السابق. حدَّث نفسه قائلًا: بالطبع، لقد رأى سرب الفطور هذا الصباح ما حققته من إنجاز مذهل! لكني لا أريد تشريفًا، ولا أطمع أن

أكون زعيمًا. لا أريد إلا أن أشاركهم ما اكتشفته، أن أطلعهم على تلك الآفاق الممتدة أمامنا جميعًا. وخطا إلى الأمام.

قال كبيرهم:

ـ أيها النورس «جوناثان ليفنجستون»، قف في المركز ليُعلَن خزيك وعارك على مرأى جميع رفاقك النوارس!

شعرَ كأنه تلقى ضربة لوح خشبي. ارتخت ركبتاه، وتدلى ريشه، وامتلأت أذناه بالطنين. يقف في المركز ليتلقى الخزي والعار؟! هذا مستحيل! وإنجازه؟! لا يستطيعون أن يفهموا! إنهم مخطئون! إنهم مخطئون!

أخذ الصوت الجليل يرتل الكلمات ترتيلًا:

ـ ... نظرًا لانعدام إحساسه بالمسؤولية، وانتهاك كرامة عائلة النوارس وتقاليدها...

أن يمثل أمامهم في المركز ليعلَن عاره على الملأ معناه أن يُنبَذ ويطرد من مجتمع النوارس، أن يُنفى ليعيش حياة العزلة على «المنحدرات القصية».

ـ ذات يوم، أيها النورس «جوناثان ليفنجستون»، سوف تتعلم أن عدم الإحساس بالمسؤولية لا يجدي نفعًا. الحياة هي المجهول، وهي ما لا يمكن لنا أن نعرفه،

ولكننا نعرف أننا نعيش في هذا العالم لنأكل، لنبقى أحياء بقدر ما أمكننا أن نحيا.

لا يُمكن لأي نورس أن ينطق ردًّا على كلام «مجلس السرب»، غير أن صوت «جوناثان» ارتفع وصاحَ قائلًا:

ـ عدم المسؤولية؟! يا إخوتي! ومَن أكثر مسؤولية من نورس يجد معنى للحياة ويتبعه، يجد مقصدًا أسمى للحياة ويسعى إليه؟ لآلاف السنين ظللنا نخمش ونخربش سعيًا وراء رؤوس السمك، ولكن الآن لدينا سبب لأن نحيا ـ أن نتعلم، أن نكتشف، أن نتحرر! امنحوني فرصة واحدة، ودعوني أطلعكم على ما اكتشفتُه...

وبدا كأن السرب كله تجمد فهو كالحجارة أو أشد قسوة.

ردد النوارس معًا بكلام محفوظ:

ـ لا أخوة بيننا وبينك بعد الآن!

وفي تطابقٍ تام كأنهم جميعًا كتلة واحدة صموا آذانهم عنه في جدية مهيبة، وأداروا ظهورهم له.

* * *

أمضى النورس «جوناثان» بقية يومه هذا بمفرده،

لكنه طار بعيدًا إلى ما وراء «المنحدرات القصية». لم يكن آسفًا على وحدته، كان أسفه الوحيد أن النوارس الأخرى رفضت أن تصدق ما ينتظرها من مجد وروعة الطيران؛ لقد رفضت أن تفتح عيونها وتبصر.

كان يتعلم شيئًا جديدًا في كل يوم. تعلم أن هبوطه بزاوية حادة وسرعة عالية يساعده في العثور على سمك نادر ولذيذ مما يتجمع تحت سطح المحيط بمسافة عشرة أقدام: لم يعد بحاجة إلى قوارب الصيد والخبز البائت ليضمن قوت يومه. تعلم أن ينام في الهواء، متخذًا سبيله في الليل عبر الريح التي تهب من جهة الشاطئ، قاطعًا مائة ميل من شروق الشمس حتى غروبها. وبالدرجة ذاتها من السيطرة الداخلية على نفسه، حلَّق عبر غيوم بحرية كثيفة وصعد من فوقها إلى سماء صافية بدرجة تعشي العيون، في اللحظة ذاتها التي كان كل نورس آخر فيها يقف على الأرض لا يرى فوقه غير الضباب والمطر. تعلم أن يمتطي الرياح العالية نحو الأراضي الداخلية البعيدة عن البحر، ليتناول هناك عشاء من حشرات شهية طيبة.

ما تمناه ذات مرَّة للسرب كله، ناله الآن بمفرده؛ لقد تعلم أن يطير، ولم يكن آسفًا على الثمن الذي

دفعه. واكتشف النورس «جوناثان» أن الضجر والخوف والغضب هي الأسباب التي تقصِّر أعمار النوارس، وحينما تبددت تلك الأسباب من نفسه وخاطره عاش حياة مديدة وسعيدة حقًّا.

* * *

ثم جاء النورسان في المساء، ليجدا «جوناثان» يطير بمفرده منزلقًا في سكينة وسلام عبر سمائه الحبيبة. كان النورسان اللذان ظهرا على جانبي جناحيه نقيين مثل نور النجوم، وبالبريق الذي ينبعث منهما رقيقًا وودودًا في هواء الليل العالي. غير أن أجمل ما فيهما كان طريقتهما البارعة في الطيران، وكيف كانت أطراف أجنحتهما تتحرك بدقة وثبات على مبعدة بوصة واحدة من جناحيه.

ومن دون كلمة واحدة، أخضعهما «جوناثان» لاختباره ـ اختبار لم يجتزه من قبل أي نورس. ثنى جناحيه، وأبطأ سرعته حتى بلغت ميلًا واحدًا في الساعة وثبت في موضعه. فأبطأ الطائران البراقان حركتهما معه، وعلى هينة ولين، ثبتا في موضعيهما. كانا يعرفان حيلة الطيران البطيء.

طوى جناحيه، وانقلب، وهوى بجسده في غطس

عمودي بسرعة مائة وتسعين ميلًا في الساعة. هويا معه، مندفعين للأسفل في تكوين لا تشوبه شائبة.

أخيرًا، حوَّل تلك السرعة دون إبطاء إلى دوران بطيء، عمودي وطويل، فأخذا يدوران معه، وهما مبتسمان.

استعاد مستوى الطيران العادي، وظل صامتًا لبرهة قبل أن يتحدث إليهما. قال:

ـ هذا كله رائع جدًّا، ولكن من أنتما؟

ـ إننا من سربك يا «جوناثان»، إننا أخواك.

كانت الكلمات قوية وهادئة.

ـ أتينا لكي نأخذك إلى أعلى، لكي نأخذك إلى الوطن.

ـ لا وطن لي ولا سرب! إنني منبوذ! ونحن نطير الآن على ذروة «رياح الجبل العظيم». ولم يعد بوسعي أن أرفع جسدي العجوز هذا، إذا ما حلَّقنا لأعلى بضع مئات أخرى من الأقدام.

ـ ولكنك تستطيع يا «جوناثان». ذلك لأنكَ تعلمت. لقد أنهيت مدرسة، وحان الوقت الآن لتبدأ دراستك في مدرسة أخرى.

كانت هذه الفكرة تومض خلاله كالبرق طوال حياته،

لذلك فقد أضاء نورها النورس «جوناثان» في تلك اللحظة بالفهم التام. كانا على صواب، يستطيع أن يطير أعلى، وقد حان وقت الرجوع إلى الوطن.

رنا نحو السماء بنظرة أخيرة طويلة، نحو تلك الأرض الفضية ذات الجلال والبهاء، حيث تعلم الكثير والكثير.

قال أخيرًا:

- إنني مستعد.

وهكذا ارتقى النورس «جوناثان ليفنجستون» برفقة النورسين المضيئين كالنجوم حتى اختفوا تمامًا في سماء داكنة وكاملة الأوصاف.

الجزء الثاني

هذه هي إذن السماوات العلى،

هكذا فكر، وابتسم لنفسه. ليس من الاحترام أن يفحص أحدٌ ملكوتَ السماء ويحلله في اللحظة ذاتها التي يطير فيها مرتفعًا ليدخله.

بينما يبتعد الآن عن الأرض، فوق السحاب وفي تكوين حميم ومتآلف مع النورسين البراقين، رأى أن جسده قد أخذ يزداد بريقًا مثل جسديهما. نعم، كان النورس «جوناثان» الشاب الذي طالما عاش وراء عينيه الذهبيتين ما زال موجودًا بداخله، ولكن هيئته الخارجية قد تبدلت.

كان لبدنه إحساس جسم النورس وسَمته، ومع ذلك فقد صار يطير أفضل كثيرًا من أي مرة طار فيها بجسمه القديم على الإطلاق. تساءل في نفسه، كيف يبذل هنا نصف الجهد فيضاعف سرعته مرتين، ويفوق أداؤه بمرتين خير أيام طيرانه على الأرض!

تألق ريشه الآن بنور أبيض ذي وميض، وصار جناحاه في مرونة وروعة صحاف الفضة المصقولة. وقد شرع، وكله سرور، يتعلم المزيد عنهما، ويضخ طاقة في هذين الجناحين الجديدين.

عندما بلغ سرعة مائتين وخمسين ميلًا في الساعة شعرَ بأنه كان يقترب من سرعته القصوى في مستوى الطيران هذا، وعندما بلغ سرعة مائتين وثلاثة وسبعين ظن أنه يطير الآن بأقصى سرعة يمكنه الطيران بها، وقد أحبطه هذا بدرجة طفيفة جدًّا. فقد كان هناك حد لقدرة هذا الجسد الجديد، وعلى الرغم من أنه كان أسرع للغاية مما حققه قديمًا من مستوى قياسي في الطيران، فما زالت هناك حدود يحتاج تجاوزها إلى مزيد من العرق وبذل الجهد. قال لنفسه إنه لا ينبغي أن توجد حدود في السماوات العُلى.

تفرَّقت السحب، وصاح به مرافقاه:

ـ نرجو لك هبوطًا سعيدًا يا «جوناثان».

وسرعان ما طواهما الهواء فاختفيا.

كان يطير فوق بحر ما، صوب شاطئ متعرج التضاريس. كانت هناك مجموعة قليلة العدد من النوارس تطير مع تيارات الهواء الصاعدة نحو الجروف الشاهقة.

وبعيدًا باتجاه الشمال، في مواجهة الأفق ذاته، تطير حفنة أخرى. مناظر جديدة، وأفكار جديدة، وأسئلة جديدة. لماذا هي قليلة للغاية، تلك النوارس؟ ينبغي أن تحتشد السماء بالنوارس! ولماذا أشعر بكل هذا التعب فجأة هكذا؟ لا يفترض بنوارس السماوات أن يصيبها التعب أبدًا، ولا أن تشعر بالنعاس.

أين سمع ذلك الكلام؟ كانت ذكريات حياته على الأرض تنفلت منه وتمضي بعيدًا. كانت الأرض هي المكان الذي تعلم فيه الكثير، بلا شك، ولكن التفاصيل صارت الآن غائمة كأنها تذوب في الضباب ـ يذكر أشياء غامضة حول القتال من أجل الأكل، ونبذه وطرده.

اقتربت حفنة النوارس على الشاطئ لتلقاه، لم يقل واحد منها كلمة. شعرَ وحسب بأنه موضع ترحيبهم وأن هذا هو موطنه وبيته. كان هذا هو يومه الكبير، يومه الذي لم يعد يذكر الآن متى أشرقت شمسه.

استدار نحو الأرض على الشاطئ، ضاربًا بجناحيه ليتوقف على مسافة بوصة واحدة في الهواء، ثم هبط بخفة على الرمل. حطت النوارس الأخرى أيضًا، ولكن من دون أن يحرك أي منها ريشة واحدة. كانت تتمايل في الريح، بأجنحة مشرقة وممدودة، ثم غيرت منحنى ريشها

بطريقة غير واضحة حتى توقفت عن الطيران في اللحظة ذاتها التي مست فيها أقدامها الأرض. هذه هي السيطرة البديعة، غير أن «جوناثان» الآن أكثر إرهاقًا من أن يحاول ذلك بنفسه. كان واقفًا في موضعه على الشاطئ، ومن دون تبادل لأي كلمة بعد، حين أخذه النوم.

في الأيام التالية، أدرك «جوناثان» أن هناك الكثير مما يجب أن يتعلمه حول الطيران في هذا الفضاء، بقدر ما تعلم في الحياة التي تركها خلفه. ولكن مع فارق، فها هنا توجد نوارس تفكر كما يفكر. فإن أهم شيء في الحياة لدى كل منها هو أن تسعى لملامسة الكمال، الكمال في الشيء الذي تعشق فعله أكثر من سواه، أي أن تطير. كانت طيورًا بهية جليلة، جميعها بلا استثناء، تقضي ساعة وراء ساعة من كل يوم في ممارسة الطيران، واختبار ألعاب بهلوانية راقية وطموحة.

لفترة طويلة نسي «جوناثان» العالم الذي أتى منه، ذلك المكان حيث يعيش السرب مغمض العينين بشدة عن بهجة الطيران، ولا يستخدم أجنحته إلا كوسيلة بهدف العثور على الطعام والتقاتل عليه. ولكنه، بين الحين والآخر، كان يتذكر، ولو للحظة واحدة.

كان يتذكر ذلك كله ذات صباح حينما خرج برفقة

مدربه، فيما يستريحان على الشاطئ بعد درس من دروس الدوران الخاطف بأجنحة مضمومة.

سأل في صمت:

ـ أين جميع الآخرين يا «سوليفان»؟

تحدث بلا كلام، كما يجري التواصل في موطنه الآن، بطريقة التخاطر السهل المعتادة لدى تلك النوارس بدلًا من الصياح والصراخ:

ـ لماذا لا يوجد المزيد منا هنا؟ لماذا؟ ففي المكان الذي جئت منه كانوا...

ـ كانوا آلاف وآلاف النوارس. أعلم.

هكذا أجاب «سوليفان» وهو يومئ برأسه.

ـ الرد الوحيد الذي يمكنني أن أراه، يا «جوناثان»، هو أنك نادر المثال، طائر واحد من وسط كل مليون طائر. لقد تقدم أغلبنا على الطريق ببطء بالغ. كنا ننتقل من عالم إلى آخر هو تقريبًا نفس العالم السابق عليه، وعند انتقالنا ننسى في لمح البصر من أين أتينا، ولا نبالي إلى أين نتجه، نعيش لحظتنا الراهنة وفقط. أيمكنك أن تتصور كم من حياة كان علينا أن نمر بها من قبل أن تخطر لنا حتى أول فكرة تهمس لنا بأن في حياتنا ما هو أكثر من

أن نأكل، ونتقاتل، ونسعى للسلطة في السرب؟ ألف حياة وحياة، يا «جون»، بل أقول لك عشرة آلاف! ثم عشرة آلاف حياة أخرى إلى أن نشرع في معرفة أن هناك شيئًا يُسمى الكمال، ثم مائة أخرى من جديد لنصل إلى فكرة أن غاية عيشنا أن نجد ذلك الكمال وأن نعرضه أمام العالمين. وبالتأكيد، تصدق علينا الآن القاعدة ذاتها: إننا نتخيَّر عالمنا التالي عبر ما نتعلمه في عالمنا هذا. مَن لا يتعلم شيئًا فسيكون عالمه التالي هو نفسه عالمه الحالي، بالحدود والقيود نفسها والأحمال الثقيلة نفسها التي عليه أن يغلبها.

بسط جناحيه والتفت مواجهًا الريح. قال:

ـ لكنك أنت، يا «جون»، قد تعلمت الكثير للغاية في عُمر واحد، فلم يكن عليك أن تمضي عابرًا ألف حياة وحياة لتصل إلى عالمنا هذا.

وما هي إلا لحظة وكان الهواء يحملهما من جديد، يتدربان. لم تكن حركة الدوران اللولبي سهلة، فبما أن نصف جسد «جوناثان» كان مقلوبًا، كان عليه أن يفكر أيضًا باتجاه مقلوب، عاكسًا انحناء جناحيه، في انسجام تام مع جناحي مدربه.

أخذ «سوليفان» يردد مرة بعد أخرى:

ـ لنحاول مرة ثانية، فلنحاول من جديد.

ثم قال أخيرًا:

ـ أحسنت.

ثم بدآ يتدربان على الدوران اللولبي باتجاه الخارج.

* * *

ذات مساء، تجمعت النوارس التي لم تخرج للطيران تلك الليلة ووقفت على الرمل، مستغرقة في التفكير. استجمع «جوناثان» كل شجاعته وسار حتى وقف أمام أكبر النوارس سنًّا، والذي كان يُقال إنه سوف ينتقل قريبًا إلى ما وراء هذا العالم.

قال، بشيءٍ من التوتر:

ـ «تشيانج»...

رنا إليه النورس العجوز في طيب:

ـ نعم، يا بُني؟

إن زعيم النوارس المُسن لم تضعفه السنوات الكثيرة، بل زادته قوة وبأسًا؛ وكان بوسعه أن يتفوَّق في الطيران على أي نورس في السرب، وكان قد اكتسب من المهارات ما لم يزل الآخرون يتطلعون لتعلمها شيئًا فشيئًا.

ـ «تشيانج»، عالمنا هذا ليس هو السماوات العُلى بالمرة، أليس كذلك؟

ابتسم العجوز في نور القمر، وقال له:

ـ ها أنت تتعلم من جديد، أيها النورس «جوناثان».

ـ إذن، ماذا يحدث فيما بعد هذا العالم؟ إلى أين نحن ذاهبون؟ ألا يوجد ذلك المكان الذي يُعرف بالسماوات العُلى؟

ـ كلَّا يا «جوناثان»، لا وجود لمثل هذا المكان. السماوات ليست مكانًا، وليست زمانًا، إنها حالة الكمال.

وصمتَ للحظة.

ـ إنك تطير بسرعة هائلة، أليس كذلك؟

ـ أنا.. أنا أستمتع بالسرعة.

قالها «جوناثان»، متفاجئًا ولكن فخورًا أن كبير النوارس قد لاحظ مواهبه.

ـ سوف تبدأ في ملامسة السماوات يا «جوناثان»، في اللحظة التي تلامس فيها الكمال في السرعة. وتلك الحالة شيء غير الطيران بسرعة ألف ميل في الساعة، أو مليون ميل، أو حتى الطيران بسرعة الضوء. لأن كل

رقم هو حدٌّ وقيد، أما الكمال فلا يعرف حدودًا أو قيودًا. السرعة الكاملة، يا بُني، هي أن تكون هناك.

ومن دون إنذار، اختفى «تشيانج» وظهر عند حافة الماء على مبعدة خمسين قدمًا، وذلك كله في أقل من لمح البصر. ثم اختفى من جديد ووقف، بسرعة الكسر الضئيل من الثانية نفسها، بالقرب من كتف «جوناثان». وقال:

ـ شيء ممتع.

كان «جوناثان» مبهورًا، فنسي أن يسأل عن ملكوت السماء.

ـ كيف تفعل ذلك؟ وبماذا تشعر عندما تفعله؟ وإلى أي مدى يمكنك أن تذهب؟

قال العجوز:

ـ يمكنك أن تذهب إلى أي مكان وإلى أي زمان تتمنى الذهاب إليه، لقد ذهبتُ إلى كل موضع وكل زمن أستطيع التفكير فيه.

ونظر عبر البحر.

ـ إنه لأمر غريب، فالنوارس التي تستخف ببلوغ الكمال

من أجل متعة السفر تتلكأ في مواضعها، متباطئة. أما النوارس التي تضع متعة السفر جانبًا من أجل بلوغ الكمال فإنها تصل إلى أي مكان تشاء، في لمح البصر. تذكر يا «جوناثان» أن السماوات ليست مكانًا أو زمانًا، فالمكان والزمان لا معنى لهما على الإطلاق. أما السماوات فهي...

ـ أيمكنك أن تعلمني كيف أطير هكذا؟

قالها النورس «جوناثان» مرتجفًا من الحماس لاقتحام مجهول جديد.

ـ بالطبع، إذا أحببت أن تتعلم.

ـ أحب جدًّا. متى يمكن أن نبدأ؟

ـ يمكن أن نبدأ الآن، إذا أحببت.

قال النورس «جوناثان»:

ـ أريد أن أتعلم كيف أطير هكذا.

وومَض في عينيه نور غريب:

ـ قُل لي ماذا أفعل.

تحدث «تشيانج» ببطء وهو يراقب النورس الأصغر سنًّا بأشد الانتباه. قال له:

ـ من أجل أن تطير بسرعة الأفكار إلى أي مكان في الوجود لا بد أن تبدأ بالثقة بأنك قد بلغت مقصدك بالفعل.

حسب «تشيانج»، كانت الخدعة كلها تكمن في أن يتوقف «جوناثان» عن النظر إلى نفسه على أنه سجين جسده المحدود هذا، بجناحين طول كل منهما اثنان وأربعون بوصة، وبأداء يتبع مخططًا مرسومًا سلفًا. تكمن الخدعة في أن يؤمن أن طبيعته الحقة، الكاملة مثل رقم غير مكتوب، قد عاشت ذات مرة في كل مكان، فيما وراء حدود المسافة والزمن.

* * *

واصل «جوناثان» التعلم، باجتهاد بالغ، يومًا بعد يوم، من قبل شروق الشمس إلى ما بعد انتصاف الليل. وعلى الرغم من كل جهوده لم يتحرك من موضعه قيد ريشة واحدة.

ـ دعكَ من الإيمان!

هكذا قال له «تشيانج» مرة ومرات.

ـ لم تكن بحاجة إلى الإيمان لكي تطير، بل كنت بحاجة إلى أن تفهم الطيران. إنه الأمر ذاته. والآن حاول من جديد...

وفي يومٍ من الأيام، كان «جوناثان» واقفًا على الشاطئ، مغمضَ العينين وفي حالة من التركيز التام، وفي ومضة برق فطنَ إلى ما كان «تشيانج» يخبره به: «نعم، هذا صحيح! إنني نورس كامل غير محدود!». وسرت فيه موجة عظيمة من البهجة.

قال «تشيانج» بصوت ملون بالانتصار:

ـ أحسنت!

فتح «جوناثان» عينيه. وجد نفسه واقفًا بمفرده مع العجوز على شاطئ مختلف تمامًا ـ حيث توجد أشجار على حافة الماء، وشمسان صغيرتان صفراوان تدوران بالأعلى.

قال «تشيانج»:

ـ أخيرًا استوعبت الدرس، ولكن قدرتك على التحكم لا تزال بحاجة إلى بعض العمل...

كان «جوناثان» مذهولًا.

ـ أين نحن؟

أما العجوز فلم يبدُ عليه أي تأثر بالجو الغريب المحيط بهما، وقد أجاب السؤال بكل بساطة:

ـ كما هو واضح، فإننا على كوكب ما، له سماء خضراء وشمسان بدلًا من واحدة.

أطلق «جوناثان» صيحة فرح، إنه أول صوت يصدره منذ أن غادر الأرض:

ـ **نجحت التجربة!**

قال «تشيانج»:

ـ نعم، يا «جون»، بالطبع نجحت، وهي تنجح على الدوام عندما تعرف ماذا عليك أن تفعل. والآن، لنتحدث حول قدرتك على التحكم...

* * *

كان الظلام قد حل عندما رجعا. نظرت النوارس الأخرى إلى «جوناثان» وفي أعينها الذهبية نظرة إجلال ورهبة، ذلك لأنها كانت قد رأته وهو يختفي من الموضع الذي ظل مزروعًا فيه لوقت طويل.

وقف يتلقى تهنئتها لأقل من دقيقة.

ـ أنا الوافد الجديد هنا! لست إلا مبتدئ! أنا الذي يجب عليَّ أن أتعلم منكم!

قال «سوليفان»، وهو يقف غير بعيد:

ـ أمرك عجيب بالنسبة لي يا «جون»، فإنك لا تخشى التعلم وتُقبِل عليه بشجاعة لم أعهدها من قبل في أي نورس آخر طوال عشرة آلاف سنة.

حط الصمت على السرب، وتململ «جوناثان» محرَجًا من الثناء.

قال له «تشيانج»:

ـ إذا أحببتَ، يمكننا أن نبدأ التدرب على الطيران في الزمن، إلى أن تصير قادرًا على الطيران في الماضي والمستقبل. وبعد ذلك ستكون مستعدًّا لأن تبدأ المرحلة الأصعب، والأقوى، والأمتع على الإطلاق. ستكون مستعدًّا لأن تبدأ الطيران للأعلى مباشرة وأن تعرف معنى الرأفة والمحبة.

انقضى شهر، أو شيء بدا كأنه شهر، وكان «جوناثان» يتعلم بوتيرة غير عادية. دائمًا ما كان يتعلم بسرعة من التجربة العادية، أما الآن، فهو التلميذ الخاص لكبير النوارس نفسه، وقد أخذ يستوعب الأفكار الجديدة وكأنه كمبيوتر من ريش مصفوف.

ولكن عندئذٍ حل يوم اختفاء «تشيانج». كان يتحدث إليهم جميعًا بهدوء، ناصحًا إياهم بألا يتوقفوا أبدًا عن

التعلم والتمرن وعن السعي الدؤوب لفهم المزيد عن المبدأ الخفي الكامل للحياة كلها. وبينما يتحدث، أخذ ريشه يزداد ضياءً شيئًا فشيئًا إلى أن صار متوهجًا إلى حد لم يستطع معه أي نورس أن يتطلع إليه.

قال، وتلك كانت الكلمات الأخيرة التي نطق بها:

ـ يا «جوناثان»، واصل تعلم المحبة.

وعندما استطاعت النوارس النظر من جديد، كان «تشيانج» قد رحل.

مع مرور الأيام، وجد «جوناثان» نفسه يفكر المرَّة تلو الأخرى في الأرض التي جاء منها. لو أنه كان يعرف هناك عشرة بالمائة، أو حتى واحدًا بالمائة، مما عرفه هنا، لكانت الحياة ذات معنى أوسع وأجمل! وقفَ على الرمل وراح يتساءل إن كان يوجد على الأرض الآن نورس آخر يكافح لكي يتخطى حدوده الضيقة، لكي يدرك معنى الطيران بعيدًا عن مجرد الانتقال سعيًا وراء فتات الخبز من قوارب الصيد. لعل هناك نورسًا الآن صار منبوذًا لأنه أعلن حقيقته الخاصة في مواجهة السرب. وهكذا كلما كان «جوناثان» يعمل على دروس الرأفة، وكلما كان يجتهد لإدراك طبيعة المحبة، زادت رغبته في الرجوع إلى الأرض. فعلى الرغم من عيشه وحيدًا فيما مضى،

فقد كان النورس «جوناثان» مخلوقًا لكي يكون معلمًا ومرشدًا، وكان سبيله الوحيد لإثبات محبته هو أن يمنح شيئًا من الحقيقة التي اطلع عليها، يمنحها لنورس ما، نورس لا يريد إلا فرصة لكي يطلع على الحقيقة بنفسه ويراها بعينيه.

أما «سوليفان»، الذي صار الآن خبيرًا في الطيران بسرعة الفكر ويساعد الآخرين على تعلمه، فقد كان متشككًا.

ـ «جون»، لقد كنتَ منبوذًا ذات مرَّة. لماذا تظن أن أيًّا من نوارس عهدك القديم على الأرض قد يستمع إليك الآن؟ أنت تعلم المَثَل الذي يقول: «النورس الذي يطير أعلى يرى أبعد»، وهو صحيح. تلك النوارس في الموضع الذي جئت منه واقفة على الأرض، لا تفعل غير الصراخ والتقاتل فيما بينها. إنها على مسافة ألف ميل من السماوات ـ وتقول إنك تريد أن تُريها السماوات من حيث هي واقفة! ولكن كيف ذلك يا «جون»، وهي عاجزة عن رؤية أطراف أجنحتها؟! ابقَ هنا. وقدِّم العون للنوارس الجديدة هنا، تلك التي ارتقت بما يكفي لأن ترى ما تخبرها به.

لبث صامتًا للحظة، ثم قال:

ـ ماذا لو أن «تشيانج» كان قد رجع إلى عوالمه القديمة؟ ما الذي كان سيكون عليه أمرك اليوم؟

كانت النقطة الأخيرة لا جدال فيها، وكان «سوليفان» على حق. «النورس الذي يطير أعلى يرى أبعد».

بقي «جوناثان» وأخذ يعمل مع الطيور الجديدة التي تفدُ إليهم، وكانت تستوعب دروسها بسرعة وذكاء بالغ. غير أن الشعور القديم عاوده من جديد، ولم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أنه قد يكون على الأرض الآن نورس أو اثنان لهما القدرة على التعلم أيضًا. كم كان سيصل مبلغ علمه الآن لو أن «تشيانج» قد أتاه في اليوم ذاته الذي نبذه فيه القطيع!

قال أخيرًا:

ـ «سولي»، لا بد لي أن أرجع. إن تلاميذك يُتقنون دروسهم، ويمكنهم مساعدتك في تدريب الوافدين الجدد.

تنهد «سوليفان»، ولكنه لم يعترض. كان كل ما قاله:

ـ أحسبُ أني سوف أفتقدك يا «جوناثان»!

فأجابه «جوناثان» في توبيخ:

ـ «سولي»! عيب عليك! دعك من الحماقة! ما الذي

نحاول التدرب عليه في كل يوم؟ إذا كانت صداقتنا تتوقف على أمور مثل المسافة والزمن فقد حطمنا رباط أخوتنا، أما حينما نتجاوز أخيرًا قيود المسافة والزمن فهذا شيء آخر! تجاوز المسافة ولن يتبقى غير هُنا، وتجاوز الزمن ولن يتبقى غير الآن. وفي قلب «الهُنا والآن»، ألا تظن أننا قد نرى بعضنا بعضًا مرَّة أو مرَّتين؟

وجد النورس «سوليفان» نفسه يضحك رغمًا عنه. ثم قال في مودة:

ـ أنت طائر مجنون حقًّا، إذا أمكن لأي شخص أن يعلِّم بعض الواقفين على الأرض كيف يرون شيئًا على مسافة ألف ميل، فلا شك أنه سيكون النورس «جوناثان ليفنجستون» دون سواه.

نظر إلى الرمل:

ـ إلى اللقاء يا «جون»، إلى اللقاء يا صديقي.

ـ إلى اللقاء يا «سولي». سوف نلتقي من جديد.

وبتلك الكلمات، استدعى «جوناثان» بفكره صورة سرب هائل من النوارس يحتشد على الشاطئ في زمن آخر، وكان يدرك بطمأنينة مجرَّبة أنه ليس حفنة عظم

وريش ولكنه الفكرة الكاملة للحرية والتحليق، لا يحدُّه شيء في الأرض ولا في السماء.

كان النورس «فلتشر ليند» لا يزال غضًّا يافعًا، ومع ذلك فقد كان موقنًا من أنه لم يسبق لأي نورس أن لاقى من سربه مثلما لاقى هو كل هذا القدر من المعاملة الشرسة والظلم.

لا يهمني ماذا يقولون، هكذا فكَّر في قسوة، وغامت الرؤية أمامه إذ يحلِّق نحو «المنحدرات القصية». إن في الطيران متسعًا أكبر كثيرًا من الرفرفة البليدة من موضع إلى موضع! فحتى الـ... الـ... البعوضة تفعل ذلك! دورة مخروطية صغيرة حول النورس العجوز، لمجرد المتعة والتسلية، فأصير منبوذًا! هل أصابهم العمى؟ ألهم أعين يبصرون بها؟ ألا يتفكرون في المجد الذي ينتظرنا إذا تعلمنا الطيران على حقيقته؟

لا يهمني ماذا يعتقدون. ولسوف أريهم ما هو الطيران على حقيقته! سأكون منبوذًا وخارجًا على القانون بكل معنى الكلمة، ما دام هذا هو ما يريدون. ولسوف أجعلهم في غاية الأسف والندم.

انبعث الصوت من داخل رأسه، وعلى الرغم من أنه كان صوتًا بالغ الرقة، فقد باغته وأفزعه حتى إنه راح يترجَّح ويتعثر في الهواء:

ـ لا تكن قاسيًا عليهم، أيها النورس «فلتشر». عندما نبذتك النوارس الأخرى لم تؤذ إلا نفسها، وسوف تدرك هذا ذات يوم وسوف ترى ما تراه ذات يوم. اغفر لهم، وأعنهم لعلهم يفهمون.

على مسافة بوصة من طرف جناحه الأيمن كان يطير النورس الألمع ضياءً في هذا العالم كله، ينزلق دونما أي جهد، ومن دون أن يحرك ريشة واحدة، وبسرعة كانت قريبة للغاية من أقصى سرعة لدى «فلتشر».

مرت بالطائر اليافع لحظةُ ارتباك وفوضى.

ما الذي يحدث؟ هل فقدتُ عقلي؟ هل أنا الآن ميت؟ أي شيء هذا؟

وأتاه الصوت، خفيضًا وهادئًا، من داخل أفكاره ذاتها، مطالبًا إياه بالإجابة عن السؤال.

ـ أيها النورس «فلتشر ليند»، أتريد أن تطير حقًّا؟

ـ نعم، أريد أن أطير!

ـ أيها النورس «فلتشر ليند»، أتريد أن تطير برغبة حارقة إلى حد أن تصفحَ عن السرب، وتتعلم، ثم تعود إليهم ذات يوم وتعينهم ليعلموا ما كانوا يجهلون؟

لا سبيل للكذب على هذا المخلوق الجليل شديد التفوق، بعيدًا عما شعرَ به النورس «فلتشر» من فخرٍ أو ما ناله من أذى. أجابَ في نعومة ولين:

ـ نعم، أريد.

ـ حسنًا يا «فلتشر».

هكذا حدَّثه المخلوق النوراني الجليل، وكان صوتًا مفعمًا بالرأفة والحنو:

ـ لنبدأ بدروس الطيران على مستوى منخفض...

الجزء الثالث

كان «جوناثان» يحوِّم ببطء

فوق «المنحدرات القصية»، مراقبًا. إن هذا النورس الشاب الغشيم «فلتشر» كان تلميذًا مجتهدًا للطيران، يكاد يكون ممتازًا حقًّا. كان يتمتع بالقوة والخفة والسرعة في الهواء، غير أن الأهم من ذلك كثيرًا كان رغبته المحتدمة في تعلم الطيران.

ها هو يقتربُ الآن، شكلًا رماديًّا غائمًا يندفع هادرًا ومنقضًّا كومض البرق، يطيرُ بسرعة مائة وخمسين ميلًا في الساعة مارًّا بمعلمه. اندفعَ فجأة نحو محاولة أخرى للدوران الرأسي البطيء بست عشرة لفة، وراح يحصي اللفات بصوتٍ عالٍ:

ـ ثمان.. تسع.. عشر... انظر-يا-جوناثان-إنني-أسبق-سرعة-الهواء... إحدى عشرة... أريدُ-وقفات-رائعة-حادة-مثل-وقفاتك... اثنتا عشرة... ولكن-سُحقًا-لهذا-أنا-لا-أستطيع...

ثلاث عشرة... تلك آخر ثلاث لفات... بدون... أربع عشرة... آاااااخ!

سقط «فلتشر» من القمة، وزاد الأمر سوءًا سخطه وغضبه لسقوطه. وقعَ للوراء، هابطًا مزعزَعًا ومُلتفًّا بوحشية في دوران عكسي، حتى تمالك نفسه أخيرًا، وهو يلهث، على مسافة مائة قدم تحت مستوى طيران معلمه.

ـ إنك تضيع وقتك معي يا «جوناثان»! أنا أشد حماقة من اللازم! أشد غباء من اللازم! أحاول وأحاول، لكني لن أنجح أبدًا!

أطل النورس «جوناثان» ناظرًا إليه وأومأ:

ـ صحيح، بالتأكيد لن تنجح أبدًا ما دمت أديت ذلك التوقف المفاجئ بمثل هذا العنف والحدة. اسمعني يا «فلتشر»، لقد خسرتَ أربعين ميلًا في الساعة عند الدخول! عليك أن تكون مرنًا وسلسًا! كُن ثابتًا ولكن احتفظ مع ذلك بالمرونة والسلاسة، أتذكر؟

وهبط حتى بلغ مستوى النورس الأصغر سنًّا.

ـ فلنحاول ذلك معًا الآن، في انسجام وتوافق. ولتنتبه لذلك التوقف المفاجئ، وليكن دخولك إليه هينًا سلسًا.

* * *

بعد مرور ثلاثة أشهر، صار لدى «جوناثان» ستة تلاميذ آخرون، جميعهم منبوذون، ولكنهم مفعمون بالفضول نحو هذه الفكرة الجديدة الغريبة؛ فكرة الطيران بلا هدف غير متعة الطيران ذاته.

ومع ذلك، ظل من الأسهل عليهم التدرب بأداء عالٍ من أن يستوعبوا المنطق الكامن وراء هذه الفكرة.

كان «جوناثان» يقول لهم في الأمسيات على الشاطئ:

ـ إن كلًّا منا في حقيقته ليس إلا فكرة لـ«النورس العظيم»، فكرة غير محدودة للحرية، وليس إتقان الطيران إلا خطوة نحو التعبير عن طبيعتنا الحقة. علينا أن ننحي جانبًا كل شيء قد يحدنا ويعيق تقدمنا. ذلك السبب وراء كل هذا التمرن على السرعة العالية، والسرعة المنخفضة، والألعاب البهلوانية...

وسرعان ما يميل تلاميذه إلى النعاس، منهكين من طيران النهار. لقد أحبوا التمرن، لأنه اتسم بالسرعة وإثارة الحماس، ولأنه أشبع نهمهم للتعلم، ذلك النهم الذي ازداد مع كل درس. ولكن ما من أحد منهم، ولا حتى النورس «فلتشر ليند»، صدق أن الطيران بقوة الأفكار وحدها يمكن له أن يكون حقيقيًّا مثل الطيران بقوة الريح والريش.

ويعود «جوناثان» فيقول لهم في أوقاتٍ أخرى:

ـ إن جسدك كله، من طرف الجناح إلى طرف الجناح، ليس إلا أفكارك ذاتها، وقد اتخذَت شكلًا يمكنك أن تراه. اكسر قيود أفكارك وسوف تكسر قيود جسدك كذلك.

ولكن مهما قال ومهما أعاد، كان كلامه يبدو مثل حكاية خرافية ممتعة، وهكذا يزداد إحساسهم بالنعاس.

وبعد مرور شهر واحد فقط أعلن لهم «جوناثان» أن الوقت قد حان للرجوع إلى السرب.

فقال النورس «هنري كالفين»:

ـ نحنُ غير مستعدين لذلك! كما أنهم لن يرحبوا بنا هناك! إننا منبوذون! لا نستطيع أن نرغم أنفسنا على الذهاب إلى مكان لا يُرحب بنا، صحيح؟

أجابه «جوناثان»:

ـ إننا أحرار في الذهاب إلى حيث نشاء، وأن نكون ما نريد أن نكون.

وارتفع من فوق الرمال واستدار شرقًا، حيث أرض موطن السرب.

سرَت بين تلاميذه موجة قصيرة من الغم والكرب،

ذلك لأن قانون السرب يقضي على المنبوذ بألَّا يعود أبدًا، ولم يخرق أحد هذا القانون قَطُّ على مدى عشرة آلاف سنة. قال القانون: «ابقوا حيث أنتم»، وقال «جوناثان»: «اذهبوا»؛ وها هو الآن كان قد ابتعد لمسافة ميل فوق المياه، ولو لبثوا مكانهم لوقت أطول فسوف يصل إلى السرب المعادي بمفرده.

قال «فلتشر»، بدرجةٍ من الخجل والتردد:

ـ حسنًا، إننا غير ملزمين بطاعة القانون ما دمنا لم نعد جزءًا من السرب، أليس كذلك؟ وعلاوة على هذا، إذا حدث أن نشب قتال، فسيكون وجودنا هناك أكثر نفعًا من وجودنا هنا.

وهكذا طاروا منطلقين من الغرب في ذلك الصباح، كانوا ثمانية يشكلون معًا ماسة مزدوجة، تكاد أطراف أجنحتهم تتلامس وتتشابك. مروا فوق «شاطئ انعقاد مجلس السرب» بسرعة مائة وخمسة وثلاثين ميلًا في الساعة، «جوناثان» في المقدمة، بينما يطفو «فلتشر» في سلاسة على جناحه الأيمن، و«هنري كالفين» يجاهد في بسالة على يساره. ثم دارَ التشكيل بكامله ببطء جهة اليمين، مثل طائر واحد... هبوط... ثم... استدارة... ثم... هبوط، والريحُ تخفق فوقهم جميعًا.

انقطع فجأة كل صراخ وضجيج الحياة اليومية في السرب وكأنما كان تشكيل الطيور سكينًا عملاقًا يشقه شقًّا، وراقبتهم أعين ثمانية آلاف نورس، من دون أن يطرف لها جفن. واحدًا بعد واحد، اندفعت الطيور الثمانية إلى الأمام في حدة راسمة دورة كاملة، قبل أن تحط على الرمل بعد إبطاء تام وثبات مفاجئ. وعندئذٍ أخذ «جوناثان» ينتقد أداءها، كما لو كان ما حدث للتو شيئًا عاديًّا يقع كل يوم.

قال بابتسامة مُلتوية:

ـ قبل أي شيء، لقد تأخرتم جميعًا في اللحاق بي.

كأن برقًا سرى عبر السرب. إن تلك الطيور لمنبوذة! ولقد عادت! وذلك... ذلك لا يمكن أن يحدث! تبددت نبوءة «فلتشر» بنشوب قتال وسط ارتباك السرب واضطرابه.

قال بعض النوارس من بين الأصغر سنًّا:

ـ لا بأس، طبعًا، صحيح أنهم منبوذون، ولكن، انظروا يا جماعة، أين تعلموا أن يطيروا هكذا؟

اقتضى الأمر نحو ساعة قبل أن يسري أمر كبيرهم عبر السرب كله: «تجاهلوهم». كل نورس يتحدث إلى المنبوذين يكون هو أيضًا منبوذًا، وكل نورس يتطلع إليهم يخرق قانون السرب.

ومنذ تلك اللحظة فصاعدًا، ولَّت النوارس ظهورها رمادية الريش نحو «جوناثان»، غير أنه لم يبدُ عليه أنه اهتم بهذا. انطلق مباشرة في دروسه وتمارينه فوق «شاطئ انعقاد المجلس»، وللمرَّة الأولى بدأ يضغط على تلاميذه ليبلغوا أقصى حدود قدراتهم. صاح عبر السماء:

ـ أيها النورس «مارتن»! تزعم أنك تعرف كيف تطير بالسرعة المنخفضة. لكنك لا تعرف شيئًا بالمرَّة إلى أن تثبت ذلك! والآن، طِر!

عندئذٍ استولت رعشة الرهبة على النورس الصغير الهادئ للغاية «مارتن وليام»، وجفل تحت نيران معلمه المصوبة نحوه، لكنه سرعان ما فاجأ نفسه كأنه قد صار خبيرًا قديرًا في الطيران منخفض السرعات. ففي أخف النسمات كان بوسعه أن يقوِّس ريشه ليرفع نفسه من دون أن يرفرف ويحرك ولو ريشة من جناح، طالعًا من الرمل للسحاب ونازلًا من السحاب للرمل من جديد.

هكذا كان الأمر أيضًا مع النورس «تشارلز ـ رولاند» الذي طار مع ريح الجبل الكبير على ارتفاع أربعة وعشرين ألف قدم، ثم هبط مزرقَّ اللون من فرط برودة الهواء الخفيف، مذهولًا وسعيدًا، وعازمًا على أن يصعد في الغد أعلى وأعلى.

أما النورس «فلتشر»، والذي كان يحب الألعاب البهلوانية أكثر من أي نورس سواه، فقد حقق طموحه في معدل طيرانه اللولبي البطيء الرأسي ذي الست عشرة لفة وتجاوزه في اليوم التالي بحركة العجلة الثلاثية، حيث كان ريشه يلتمع بضوء الشمس الأبيض على شاطئ أطلت منه أكثر من عين، راحت تسترق النظرات.

في كل ساعة كان «جوناثان» موجودًا بجانب كل واحد من تلاميذه، يوضح ويقترح ويدفع ويوجه. طار معهم عبر الليل وعبر السحب وعبر العاصفة، لمتعة التمرن والتجربة، بينما يتجمع السرب منكمشًا على الأرض في بؤس.

عندما أتمَّ التلاميذ طيرانهم، استراحوا على الرمل، وعندئذٍ أخذوا ينصتون إلى «جوناثان» بمزيد من الانتباه. كان يطرح بعض أفكار مجنونة لم يستطيعوا أن يفهموها، ثم يطرح بعض أفكار نيرة كانوا قادرين على فهمها.

وشيئًا فشيئًا، تحت جنح الليل، تكونت حلقة أخرى من الطيور حول حلقة التلاميذ ـ حلقة من النوارس ذات الفضول للمعرفة التي لبثت تنصت في الظلمة لساعات بلا نهاية، وهي تتمنى ألا يرى بعضها بعضًا، ثم تتبدد في الهواء قُبيل مطلع الفجر.

كان قد مر شهر كامل بعد الرجوع حينما اجتاز أول نورس في السرب الخط الفاصل وطلب أن يتعلم الطيران. وبمجرد طلبه هذا صار النورس «تيرنس لويل» طائرًا مُدانًا، وصنفوه منبوذًا آخر، وصار أيضًا هو التلميذ رقم ثمانية من تلاميذ «جوناثان».

في الليلة التالية أتى من السرب النورس «كيرك ماينارد»، متعثرًا فوق الرمال، يجرجر ذيله الأيسر، حتى انهار عند قدمي «جوناثان». قال بصوت خفيض، متحدثًا كما يتحدث مَن يحتضر:

ـ ساعدني، إنني أرغب في الطيران أكثر من أي شيء آخر في هذه الدنيا بما فيها...

قال «جوناثان»:

ـ هيا بنا إذن، حلِّق معي بعيدًا عن الأرض، ولسوف نبدأ.

ـ إنك لا تفهمني. جناحي. إنني عاجز عن تحريك جناحي.

ـ أيها النورس «ماينارد»، إنك تملك حرية أن تكون نفسك، نفسك الحقيقية، هُنا والآن، وما من شيء يمكنه أن يعترض سبيلك. ذلك «قانون النورس العظيم»، ولا قانون سواه.

ـ أتقول إنني أستطيع الطيران؟

ـ بل أقول إنك حُر.

بهذه البساطة وبهذه السرعة، بسط النورس «كيرك ماينارد» جناحيه، دونما أدنى جهد، وارتفع في هواء الليل المظلم. استيقظ السرب من نومه على صوت صيحته، أعلى صيحة استطاع أن يطلقها، من ارتفاع خمسمائة قدم:

ـ أنا أستطيع الطيران! اسمعوا! أستطيع الطيران!

ومع شروق الشمس، كان هناك ما يقرب من ألف طائر يقفون خارج حلقة التلاميذ، متطلعين بفضول نحو «ماينارد»، من دون اكتراث إذا كان هناك من يراهم أم لا، وهم يُنصتون، مُحاولين أن يفهموا كلمات النورس «جوناثان».

تكلم عن أمور في غاية من البساطة ـ أن من حق كل نورس أن يطير، وأن تلك الحرية هي من صميم طبيعته وكيانه ووجوده، وأنه لا بد أن نستبعد أي شيء يقف عقبة أمام تلك الحرية، مهما اتخذ ذلك الشيء من أشكال طقوس وعادات، أو خرافات، أو قيود وحدود.

هكذا انبعث صوت من وسط الجمع:

ـ نستبعد أي شيء، حتى لو كان ذلك الشيء هو «قانون السرب»؟

فأجاب «جوناثان»:

ـ القانون الصحيح الوحيد هو الذي يؤدي بنا إلى الحرية، دون ذلك لا شيء آخر.

وانبعث صوت آخر:

ـ كيف تنتظر منا أن نطير مثلما تطير أنت، وأنت الاستثنائي صاحب الموهبة والنعمة السماوية، تعلو فوق سائر الطيور؟

ـ فلتنظروا إلى «فلتشر»! إلى «لويل»! إلى «تشارلز ـ رولاند»! و«جودي لي»! أهم أيضًا استثناء؟ أهم أيضًا من أصحاب المواهب والنعم السماوية؟ إنهم لا يملكون أكثر مما تملكون أنتم، ومما أملك أنا. الفرق الوحيد، ولا شيء سواه، هو أنهم قد بدأوا يفهمون طبيعتهم الحقيقية وبدأوا يتدربون عليها ويمارسونها!

تململ تلاميذ في وقفتهم، عدا «فلتشر»، فلم يكونوا قد فطنوا حتى الآن أن هذا ما كانوا يفعلونه حقًّا.

راح الجمع يزداد يومًا بعد يوم، توافدت النوارس لكي تطرح أسئلتها على «جوناثان»، ولتتعبده، ولتوبخه.

* * *

قال «فلتشر» لـ«جوناثان» ذات صباح بعد «تمرين السرعة المتقدم»:

ـ يقولون عنك في السرب إنك إما أن تكون ابنًا لـ«النورس العظيم» وإما أنك سابق لزمانك بألف سنة.

تنهد «جوناثان». فكر في نفسه أن هذا ثمن إساءة الآخرين فهمك. يُسمونك الشيطان أو يُسمونك الرحمان.

ـ ما رأيك أنت يا «فلتشر»؟ هل نحن سابقون لزماننا؟

حط عليهما صمت طويل.

ـ في ظني، إن هذا النوع من الطيران كان موجودًا على الدوام، هُنا في متناول أي فرد يسعى لتعلمه ويرغب في اكتشافه؛ فالأمر لا علاقة له بالزمان أصلًا. لعلنا سابقون للأنماط السائدة، سابقون لطريقة الطيران التي يتبعها أغلب النوارس.

قال «جوناثان» وهو يدورُ لينزلق عكسيًّا لبرهة:

ـ كلام معقول. فهذا على الأقل أقل سوءًا بكثير من أن يكون الواحد سابقًا لزمانه.

* * *

جرى ما جرى بعد ذلك بأسبوع واحد. كان «فلتشر»

يشرح مبادئ الطيران بالسرعة العالية لفصل من تلاميذ جُدد. وكان قد انتهى لتوه من انقضاض رأسي من ارتفاع سبعة آلاف قدم، وبدا مثل شريط رمادي طويل مقذوفًا فوق الشاطئ، عندما انزلق طائر حديث السن في أول طيران له واعترض طريقه مباشرة، وهو يصيح مناديًا أمه. وفي عُشر ثانية مالَ النورس «فلتشر ليند» نحو اليسار لكي يتجنَّب الصغير، بسرعة تزيد قليلًا عن المائتي ميل في الساعة، فارتطم بجُرف من الجرانيت الصلب.

بالنسبة له، بدت الصخرة كما لو كانت بابًا عملاقًا وصلدًا يفضي إلى عالم آخر. وعند الارتطام شعر بانفجار من الخوف والصدمة والظلمة، ثم وجد نفسه ينجرف إلى سماء غريبة عجيبة، إذ ينسى، ويتذكر، ثم ينسى من جديد؛ خائفًا وحزينًا وآسفًا، آسفًا لأقصى درجة.

وأتاه الصوت نفسه كما قد أتاه أول مرَّة، في أول يوم التقى فيه بالنورس «جوناثان ليفنجستون»:

ـ تكمن الخدعة يا «فلتشر» في أننا نحاول تجاوز حدودنا واحدًا بعد آخر، متحلين بالصبر، إننا لا ندرس الطيران عبر الحجارة إلا فيما بعد فترة من البرنامج الدراسي.

ـ جوناثان!

ـ ويُطلقون عليَّ أيضًا اسم «ابن النورس العظيم».

هكذا قال معلمه من دون عاطفة.

ـ ماذا تفعل هنا؟ الجُرف؟ ألم يحدث... أنني...؟ ألم... أمت؟

ـ آه، اهدأ يا «فلتش». اهدأ وفكر. إذا كنت تتحدث إليَّ الآن فمن الواضح إذن أنك لم تمت، صحيح؟ ما نجحت في تحقيقه هو أنك غيرت مستوى وعيك، ولكن بطريقة مفاجئة قليلًا. والآن الخيار خيارك. يمكنك أن تبقى هنا وتتعلم على هذا المستوى ـ وهو أرقى تمامًا مما تركته وراءك، بالمناسبة ـ أو يمكنك أن تعود وتواصل العمل مع السرب. إن زعماء السرب كانوا يتمنون وقوع كارثة ما، ولكنهم فوجئوا بك تخدمهم بأكثر ما كانوا يأملون.

ـ أريد أن أعود إلى السرب بالتأكيد. لم أكد أبدأ مع المجموعة الجديدة!

ـ حسنًا جدًّا، يا «فلتشر». أتذكرُ ما كنا نقوله حول أن أجسادنا ليست أكثر من أفكارنا ذاتها؟

* * *

هزَّ «فلتشر» رأسه ومد جناحيه وفتح عينيه عند قاعدة

الجرف، وسط السرب المتجمع حوله. ما إن تحرك حتى صدرت ضجة عظيمة من صياح وصراخ السرب:

ـ إنه يعود للحياة! مَن كان ميتًا يقوم من الموت!

ـ لقد لمسه بطرف جناحه! لقد أحياه من بعد موته! أعاده للحياة «ابن النورس العظيم»!

ـ كلَّا، فهو ينكر ذلك! إنه الشيطان! أتى ليدمر السرب!

أربعة آلاف نورس كانوا في هذا الحشد، مذعورين مما حدث أمام أعينهم، وسرت بينهم صيحة «الشيطان!»، كأنها الريح في عاصفة بالمحيط. التمعت العيون، وأطبقت المناقير حادة، واقتربوا بنية الشر والهلاك.

سأل «جوناثان»:

ـ هل ستكون أحسن حالًا إذا ما غادرنا يا «فلتشر»؟

ـ بكل تأكيد، لن أمانع إن رحلنا...

وفي لمح البصر كانا واقفَين معًا على مسافة نصف ميل، وانطبقت المناقير المتوهجة لجمع الهَمَج على الهواء الفارغ.

تساءل «جوناثان» في حيرة:

ـ لماذا؟ لماذا يكون أصعب شيء في الدنيا أن تقنع طائرًا

بأنه حُر، وأنه يستطيع أن يثبت ذلك بنفسه إذا أمضى وقتًا قليلًا في التدريب؟ لماذا ينبغي أن يكون هذا الأمر عسيرًا هكذا؟

ما زال «فلتشر» يطرف بعينيه من أثر تغيُّر المشهد حوله.

ـ ما الذي فعلته توًّا؟ كيف وصلنا إلى هنا؟!

ـ ألم تقل إنك تريد الابتعاد عن حشد الهمج؟

ـ نعم! ولكن كيف أمكنكَ أن...؟

ـ مثل كل شيء آخر يا «فلتشر». بالتدريب.

* * *

مع الصباح كان السرب قد نسي نوبة جنونه، لكن «فلتشر» لم ينسَ.

ـ جوناثان، أتذكر ما قلته منذ فترة طويلة، أن نحب السرب بما يكفي لكي نعود إليه ونساعده على التعلم؟

ـ طبعًا.

ـ لا أفهم كيف تتمكن من محبة طيور من الهمج والغوغاء حاولت أن تقتلك!

ـ آه، يا «فلتشر»، إنك لا تحب ذلك فيهم! لا تحب البغضاء

والشر، بالطبع. عليك أن تتدرب لترى النورس الحقيقي، النورس الخيِّر في كل واحد منهم، وأن تساعدهم على رؤيته بأعينهم. ذلك ما أعنيه بالمحبة. وإنها لمتعة وفرحة، عندما تملك القدرة عليها.

إنني أذكر على سبيل المثال طائرًا فتيًّا وعفيًّا وقاسيًا، اسمه النورس «فلتشر ليند». كان قد نُبذ وطُرد، وصار مستعدًّا لقتال السرب كله حتى الموت، وقد بدأ يبني جحيمه المرير هناك على «المنحدرات القصية». وها هو هنا اليوم يبني لنفسه بيتًا في الجنة بدلًا من ذلك، ويقود السرب كله على هذا السبيل.

التفت «فلتشر» نحو معلمه، وقد برقت شرارة الخوف للحظة في عينيه:

ـ أنا أقود؟ ماذا تقصد بأنني أقود السرب؟ أنت المعلم هنا. لا يمكنك أن ترحل!

ـ ألا أستطيع؟ ألا تظن أنه ربما تكون هناك أسراب أخرى، ونوارس أخرى مثل «فلتشر»، أشد حاجة منك إلى معلم، أنت النورس الذي يلتمس طريقه نحو النور؟

ـ أنا؟ ولكني، يا «جون»، لست إلا نورسًا عاديًّا، أما أنت...

ـ ... الابن الوحيد لـ«النورس العظيم»، على ما أظن؟

قالها «جوناثان» متنهدًا وتطلع نحو البحر.

ـ لم تعد بحاجة إليَّ. إنك بحاجة إلى مواصلة طريقك والعثور على نفسك، ولو بقدر قليل في كل يوم، العثور على ذلك النورس «فلتشر» الحقيقي الذي لا تقف أمامه أية حدود. هذا هو معلمك، وما عليك إلا أن تفهمه وتدربه.

ما هي إلا لحظة بعد ذلك وأخذ جسد «جوناثان» يتموج في الهواء، ويتألق بالنور، وبدأ يصير شفيفًا.

ـ لا تدعهم ينشرون شائعات حمقاء عني، أو يتخذونني ربًّا لهم. اتفقنا يا «فلتشر»؟ أنا مجرد نورس. أحب الطيران، ربما...

ـ جوناثان!

ـ يا «فلتشر» المسكين. لا تصدق ما تخبرك به عيناك، فكل ما تبديانه لك هو الحدود والقيود. انظر ببصيرتك وفطنتك، اكتشف ما تعلمه من قبل، وسوف تعرف كيف لنا أن نطير.

تبدد النور المتألق، وتلاشى النورس «جوناثان» في الهواء كأن لم يكن.

بعد بعض الوقت، حمل النورس «فلتشر» نفسه حملًا

إلى السماء وواجه مجموعة جديدة تمامًا من التلاميذ، في غاية اللهفة على بدء أول دروسهم.

قال وهو مثقل القلب:

ـ قبل كل شيء، عليكم أن تدركوا أن النورس هو فكرة بلا حدود للحرية، إنه صورة من «النورس العظيم»، وأن جسدكم بكامله، من طرف الجناح إلى طرف الجناح، ليس أكثر من أفكاركم ذاتها.

رمقته النوارس الفتية بنظرات متسائلة ساخرة، وكأنها تقول: «مهلك علينا يا عم، لا تبدو هذه كقاعدة للدوران في الهواء».

تنهد «فلتشر» وبدأ من جديد. قال وهو يحدجهم بنظرة حازمة:

ـ امممم، آه... جيد جدًّا. فلنبدأ بالطيران الخفيض.

وإذ قال هذا أدرك فجأة أن صديقه كان أمينًا تمامًا معه، فلم يكن كائنًا سماويًّا وربانيًّا، شأنه شأن «فلتشر» نفسه.

«لا حدود، يا «جوناثان»؟»، قال في نفسه، «حسنًا إذن، لن يمضي وقت طويل قبل أن أظهر من الهواء على شاطئك، وأريك شيئًا أو اثنين عن الطيران!».

وعلى الرغم من أنه حاول أن يظهر بمظهر صارم أمام تلاميذه، فقد رآهم جميعًا على ما هم عليه حقًّا، للحظة واحدة فقط، ولم يعجبه فقط ما رأى، بل أحبه وأغرم به. «لا حدود، يا «جوناثان»؟»، قال لنفسه، وابتسم. لقد بدأ سباقه نحو التعلم.

الجزء الرابع

لبضع سنين

بعد أن تلاشى النورس «جوناثان» من شواطئ السرب، عاشت أغرب مجموعة من الطيور التي ظهرت على الأرض. بدأ كثيرون منهم يفهمون بالفعل الرسالة التي حملها إليهم «جوناثان»، وصار من المألوف أن ترى نورسًا شابًّا يطير طيرانًا مقلوبًا ويتمرن على الدوران، كما كان من المألوف أيضًا أن ترى نورسًا عجوزًا، غير مستعد لأن يفتح عينيه على سمو الطيران وروعته، يتحرك في ضجر إلى قوارب الصيد ومنها، على أمل أن يحظى بوجبة من خبز مبلل.

أما النورس «فلتشر ليند» وتلاميذ «جوناثان» الآخرون فقد راحوا يبشرون بتعاليم معلمهم حول الحرية والطيران في رحلات طويلة للتبشير والدعوة لكل سرب موجود على امتداد خط الشاطئ.

وجرت وقائع ذات شأن في تلك الأيام. فقد كان

تلاميذ «فلتشر»، ثم تلاميذ تلاميذه، يطيرون بدقة وإتقان وبنوع من البهجة لم يشاهَد من قبل قَطُّ. ومن موضع إلى آخر ظهرت طيور منفردة تمارس الألعاب البهلوانية وهي تتمرن، حتى تفوقت فيها على «فلتشر»، بل تفوقت في بعض الأحيان على «جوناثان» نفسه. راح منحنى الصعود للنوارس ذات الهمة العالية يعلو بزاوية حادة حتى تجاوز أي رسم بياني ممكن، وبين الحين والآخر ظهر تلاميذ تخطوا كل الحدود بالغين درجة الكمال حتى إنهم قد اختفوا، كما اختفى «جوناثان»، من على وجه هذه الأرض، لأنها بحدودها وقيودها كانت أضيق من أن تحتويهم.

كان عصرًا ذهبيًّا، ولو لفترة. كانت حشود من النوارس تتزاحم وتتدافع حول «فلتشر»، فقط لتلمس الطائر الذي لمسَ النورس «جوناثان»، وهو الذي يعتبرونه الآن سماويًّا ربَّانيًّا. ومن دون جدوى ظل «فلتشر» يعيد ويزيد عليهم بأن «جوناثان» لم يكن إلا نورس مثلهم جميعًا، نورس استطاع أن يتعلم كما يستطيعون جميعًا. وظلوا هم يتبعونه طوال الوقت ليسمعوا منه الكلمات التي نطق بها «جوناثان» بالحرف الواحد، وليعرفوا لفتاته وسكناته بالضبط، وليكتشفوا أدق تفاصيل حكايته وحياته. وكلما توسلوا

المزيد من التفاهات، ضاق صدر النورس «فلتشر». بعد أن كانوا مهتمين بممارسة الرسالة ذاتها ـ بالتدريب والطيران السريع والحر والجليل في أبهاء السماء ـ ها هم الآن بدأوا يتكاسلون عن العمل الصعب، ولا يتطلعون إلا لأساطير «جوناثان»، كما لو أنه قد أصبح نجمًا معبودًا وأصبحوا هم نادي المعجبين المهووسين به.

كانوا يسألون:

ـ حضرة النورس الأب «فلتشر»، هل قال الجليل «جوناثان»: «إننا في **الحقيقة** أفكار «النورس العظيم»...»، أم قال: «إننا في **الواقع** أفكار «النورس العظيم»...»؟

وكان يجيبهم، مذعورًا من إسباغ ألقاب التبجيل عليه:

ـ أرجوكم، ادعوني «فلتشر»، «النورس فلتشر» وفقط. وأي فرق تصنعه الكلمات التي عبر بها؟ كلاهما صحيح، ما نحن إلا أفكار «النورس العظيم».

ولكنه كان يعلم أن إجابته لن ترضيهم، وظنوا أنه تهرب من سؤالهم.

ـ حسنًا، أيها النورس «فلتشر»، عندما كان النورس السماوي «جوناثان» يتأهب للطيران، هل كان يتخذ خطوة واحدة فقط نحو الريح، أم خطوتين؟

وقبل أن يتمكن من تصحيح سؤال من أسئلتهم، كان ينطلق كالسهم نحوه سؤال آخر:

ـ أيها النورس «فلتشر»، هل كانت عينا النورس المقدس «جوناثان» لونهما رمادي أم ذهبي؟

كان السائل طائرًا بعينين رماديتين، وكان في غاية اللهفة لتلقي جواب واحد محدد.

ـ أنا لا أدري! انسوا أمر عينيه ولون عينيه! ولتكن عيناه بنفسجيتَي اللون! فما أهمية ذلك؟ ما أتى ليُبلغنا إياه أننا قادرون على **الطيران**، فقط لو صحونا من النوم وتوقفنا عن التسكع على الشاطئ والتحدث عن لون عينيٍّ شخص ما! والآن انظروا، سوف أعرض عليكم حركة المروحة...

غير أن أكثر من نورس، استصعبوا التمرن على حركة المروحة، فطار أغلبهم إلى بيوتهم وهم يتفكرون: «كان الجليل له عينان بنفسجيتَا اللون ـ ليس مثل لون عينيَّ، وليس مثل لون عيني أي نورس قد عاش على الإطلاق».

مع السنوات، أخذت فصول التعليم تتبدل أحوالها، من القصائد المحلِّقة فسيحة الأفق في الطيران إلى الأحاديث الخافتة عن «جوناثان» قبل التدريب وبعده؛

حتى وصلت إلى تلاوات مشوشة ومعقدة عن النورس السماوي الرباني، وهم واقفون على الرمل، من غير أن يحرك نورس واحد جناحًا ليطير.

وإزاء هذا التبدل انتاب الذهول «فلتشر» وتلاميذ «جوناثان» الآخرين كل بدوره، وحاولوا الإصلاح والتصحيح بصرامة وغضب، ولكنهم عجزوا عن إيقاف ما يحدث. كانوا يتلقون التكريم والتشريف ـ والأسوأ، التبجيل والتقديس ـ ولكن لم يعد أحد يستمع إليهم، وأخذ عدد الطيور التي تتدرب على الطيران يتناقص يومًا بعد يوم.

حتى رحل التلاميذ الأصليون، الواحد في إثر الآخر، تاركين وراءهم أجسادًا باردة. وكان السرب يحتشد حول جثامين الراحلين، ويعقد طقوسًا رسمية مبللة بالدموع عليهم، ويدفنونهم تحت أكوام هائلة من الحصى؛ وكانت كل حصاة لا توضع في مكانها إلا بعد خطبة عصماء مطولة تفيض بالأسى والأسف، يلقيها طائر وقور ومتجهم كأنه هو نفسه الميت. وصارت الأكوام أضرحة مقدسة، وفُرض على كل نورس يطمح إلى «وحدانية الوجود» أن يؤدي طقسًا ثابتًا بإسقاط حصاة على الضريح وإلقاء خطبة طافحة بالهم والغم. لم يدرِ أحد ما معنى «وحدانية الوجود» تلك،

ولكنها كانت شيئًا عميقًا خطيرًا، لا يمكن لنورس أبدًا أن يستفسر عنه وإلا بدا مغفلًا أحمق. فلمَ المشقة، والجميع يعرف ما هي «وحدانية الوجود»، وكلما كانت الحصاة التي تلقيها على قبر النورس «مارتن» أجمل صورةً، زادت فرصك في بلوغ تلك الوحدانية مع الوجود.

كان «فلتشر» هو آخر الراحلين، وحانت ساعته في أثناء دورة طيران طويلة ووحيدة، كان الطيران الأنقى والأجمل من بين كل ما عاشه على الإطلاق. تبدد جسده وسط انزلاق رأسي طويل وبطيء، وهو ما ظل يتمرن عليه منذ اليوم الأول من لقائه بالنورس «جوناثان»، وحين تبدد لم يكن يلقي حصى فوق قبرٍ أو يتأمل شعارات حول وحدانية الوجود. كان يذوب في الكمال، كمال طيرانه.

حينما لم يظهر «فلتشر» على الشاطئ في الأسبوع التالي، حينما تبدد من دون أن يترك أثرًا أو رسالة من ورائه، استولت على السرب نوبة قصيرة من الفزع.

لكنهم اجتمعوا معًا وراحوا يفكرون، واستقر رأيهم على حقيقة ما جرى. أُعلن أن النورس الأب «فلتشر» شوهد، وهو محاط بسبعة آخرين من تلاميذه الأوائل، وهم واقفون على صخرة ستُعرف فيما بعد بـ«صخرة الوحدانية»، ثم انشقت سحب السماء وبزغ من ورائها

النورس العظيم «جوناثان ليفنجستون» بجلاله وجماله، متشحًا بريشات ملكية وأصداف ذهبية، ومكللًا بتاج من حصى كريم ثمين يحف جبينه، ومُشيرًا على سبيل الرمز إلى السماء والبحر والريح والأرض، وقد نادى «فلتشر» واستدعاه للذهاب معه إلى «شاطئ الوحدانية»، فنهض «فلتشر» كأنما بفعل السحر، تحيط به أشعة قدسية، ثم انغلقت السحب من جديد على المشهد وقد انبعث صوت جوقة هائلة من نوارس تترنم بالأناشيد.

وهكذا صارت كومة الحصى على «صخرة الوحدانية»، في الذكرى المباركة للنورس «فلتشر»، هي الأكبر حجمًا من أي كومة في أي مكان آخر على امتداد خط الشاطئ. وشُيدت أكوام أخرى في كل مكان، كنماذج مصغرة عن الأصل، وكل يوم ثلاثاء في ساعة الأصيل، يسير السرب بكامله ليقف حول الحصى ويسمع ما تيسر عن معجزات النورس «جوناثان ليفنجستون» وكراماته هو وتلاميذه الموهوبين الربانيين. ولم يعد أحد يتجشم مشقة الطيران إلا عند الضرورة القصوى، وحتى عند الضرورة كانوا قد استنوا عادات غريبة في طيرانهم. فقد بدأت الطيور الأيسر حالًا تحمل في مناقيرها أغصان الأشجار، كإشارة رمزية على رفعة المنزلة والمكانة الخاصة. وكلما

حمل النورس في منقاره غصنًا أضخم وأثقل استحق مزيدًا من انتباه السرب وإعجابه. وكلما زاد حجم غصن الواحد منهم اعتبروه طائرًا متطورًا راقيًا.

حفنة قليلة في مجتمع النوارس من لاحظوا أن حمْلهم لهذا الثقل وجرجرة الأغصان معهم هنا وهناك، يجعل طيران أشد النوارس إيمانًا مهمة شاقة ومزعجة.

أما رمز تعاليم «جوناثان» فقد صار حصاة ناعمة، ثم بعد ذلك، كان أي حجر قديم يفي بالغرض. كان هذا أسوأ رمز ممكن لطائر أتى ليعلم الآخرين بهجة الطيران، ولكن بدا وكأن لا أحد ينتبه لهذا، أو على الأقل لا أحد من ذوي الأمر والنهي في السرب.

في كل يوم ثلاثاء كان يتوقف الطيران تمامًا، وتجتمع حشود لا نهاية لها لتقف وتسمع تلاوة «الكاهن الرسمي لتلاميذ السرب». وفي غضون سنوات قليلة فقط صارت نصوص التلاوة تلك مصفوفة مرتبة، حتى تخشبت وانتهت إلى عقائد جامدة من جرانيت صلد. «أنت-الذي-هو-جوناثانا-نورسنا-عظيمًا-بالأعالي-كُن-رحيمًا-بنا-نحن-الذين-هُم-أدنى-من-براغيث-الرمل...». وهكذا، وهكذا، لساعات مطولة، حتى الثلاثاء التالي. كانت علامة تفوق الكاهن أن يُدغم الأصوات معًا بسرعة

البرق، بحيث لم يكن بوسعهم أن يفهموا من كلامه حرفًا واحدًا. بضعة طيور جريئة تهامست بأن الصوت لا معنى له على كل حال، حتى إذا استطاع المرء في نهاية الأمر أن يستخلص أن هناك فعلًا كلمة أو كلمتين مدفونتين بداخله.

وبمناقيرهم رسموا صورًا لـ«جوناثان»، مستخدمين الأحجار الرملية، بعينين كبيرتين حزينتين من صدفتين بلون البنفسج، وانتشرت على امتداد خط الشاطئ، ولدى كل كومة حصى مقدسة أو نموذج ضريح مصغر، وكلها صارت مراكز للتعبد أثقل من أي أحجار قد ترمز إليها.

وفي أقل من مائتي عام تقريبًا خلت حياة النوارس من أي جانب من تعاليم «جوناثان»، وانتزعت رسالته من ممارساتها اليومية، لمجرد إعلان أنه كان كائنًا سماويًّا مباركًا، وأنه يتجاوز طموح النوارس العادية الفانية، التي هي أدنى من براغيث الرمل. ومع الوقت، أصبحت الشعائر والطقوس التي زرعت حول اسم «جوناثان» هَوَسًا مسيطرًا على الجميع. كل نورس عاقل كان يحوِّل مسار طيرانه في الهواء لا لشيء إلا ليتجنب الطيران على مرأى من المزارات المقدسة، التي ظلت كما كانت، تقوم على مراسم وخرافات أولئك الذين مالوا إلى الأعذار التي تبرر الفشل عن العمل الشاق والتماس العظَمة. أما المفارقة

فكانت أن النوارس التي ما زالت تفكر وتتأمل أغلقت عقولها أمام كلمات «الطيران»، «المزارات المقدسة»، «النورس العظيم»، «جوناثان». لقد كانوا من كل جانب آخر هم النوارس الأنبه والأصدق منذ «جوناثان» نفسه، ومع ذلك فلدى ذكر اسمه، أو أي تعبيرات أخرى من تلك التي أساء إليها «كهنة التلاميذ المحليون»، كانت عقولهم تنغلق بشدة في لمح البصر كأنها أبواب فخاخ مُحكمة.

ولأنهم تمتعوا بالفضول، فقد بدأوا يجربون الطيران، ولو لم يستخدموا تلك الكلمة أبدًا. «هذا ليس طيرانًا»، هكذا كانوا يؤكدون بعضهم لبعض مرارًا وتكرارًا، «ما هي إلا طريقة لاكتشاف الحقيقة». وهكذا برفضهم «التلاميذ» أصبحوا هم أنفسهم «تلاميذ»، وبرفضهم اسم «جوناثان» صاروا يتدربون على الرسالة التي حملها إلى السرب.

لم تكن هذه ثورة ذات ضجيج وجلبة؛ فلم يكن هناك صياح ولا زعيق، ولا تلويح بالرايات. ولكن مجرد أفراد متناثرين بدأوا يطرحون الأسئلة، أفراد كالنورس «آنتوني» مثلًا، الذي لم يكتمل بعد نمو ريشه كريش البالغين.

كان قد خاطب كاهنه قائلًا له:

ـ اسمع الآن، إن الطيور التي تأتي لتسمعك كل ثلاثاء لا يدفعها إليك إلا ثلاثة أسباب، أليس صحيحًا؟

إما لأنهم يظنون أنهم يتعلمون شيئًا ما، وإما لأنهم يظنون أن وضع حصاة على الكومة سيجعلهم مباركين مقدسين، أو لأن جميع الآخرين ينتظرون منهم الذهاب. صحيح؟

ـ وأنتَ يا فرخي الصغير، ألا تجد شيئًا يستحق التعلم؟

ـ كلَّا. هناك ما يستحق التعلم، ولكني لا أدري ما هو. إن مليون حصاة لن تصنع مني كائنًا مقدسًا إن لم أكن جديرًا بذلك، وأنا لا يهمني ما قد تقوله النوارس الأخرى عني.

فسأله الكاهن وهو ما زال مصدومًا قليلًا مما ينطق به الصغير من كفر وتجديف:

ـ وبماذا تجيب، أيها الفرخ، إن سألتك عما تُسمى معجزة الحياة هذه؟ لقد قال النورس-عظيمنا-جوناثان-له-العزة-والجلال-تقدس-اسمه إن الطيران...

ـ الحياة ليست معجزة، يا حضرة الكاهن، بل ضجر ثقيل الوطأة. أما عظيمكم-جوناثان-لا أدري-ماذا فما هو إلا أسطورة من أساطير الأولين، اختلقها شخص ما منذ زمن طويل، حكاية خرافية يصدقها الضعاف لأنهم عاجزون عن النهوض ومواجهة العالم كما هو. تصوَّر هذا! نورس يستطيع الطيران بسرعة مائتي ميل في

الساعة! لقد حاولت هذا، وأسرع ما يمكنني الوصول إليه هو خمسون ميلًا، في هبوط رأسي، وحتى عندئذٍ أكون فاقدًا للسيطرة تقريبًا. للطيران قوانين لا يمكن خرقها، وإن لم تصدِّق هذا فلتخرج إلى هناك ولتجرب بنفسك! فلتقل بصراحة، هل تؤمن ـ حقًّا الآن ـ أن عظيمكم-النورس-جوناثان هذا قد طارَ بسرعة مائتي ميل في الساعة؟

ردد الكاهن بإيمان تام أعمى:

ـ بل أسرع، وعلَّم آخرين كيف يفعلون هذا.

ـ هكذا تقول حكايتكم الخرافية. ولكن فقط عندما تُظهر لي أن بوسعك الطيران بتلك السرعة، أيها الكاهن، فعندئذٍ سوف أبدأ في الإنصات لما تقولون.

كان ذلك هو بيت القصيد، وقد فطن النورس «آنتوني» إلى ذلك في اللحظة ذاتها التي قال فيها كلامه هذا. لم يكن لديه أجوبة، لكنه كان يعرف أنه سيقدم حياته بكاملها، عن طيب خاطر وبكل سعادة، لأي طائر يمكنه أن يبرهن له صدقَ ما يقوله، يمكنه أن يعرض عليه بضع إجابات في الحياة الفعلية، إجابات ذات نفع، من شأنها أن تضفي التفوق والبهجة على العيش اليومي. وحتى يعثر على ذلك الطائر، ستبقى الدنيا كما يعهدها، رمادية وموحشة،

بلا منطق وبلا غاية؛ وسيبقى كل نورس كما يعهده، ابنًا للمصادفة العمياء حيث اجتمع الدم والريش في جسد متَّجه بكل طاقته نحو العدم والنسيان.

مضى النورس «آنتوني» في سبيله الخاص، كما راح يفعل عدد أكبر وأكبر من النوارس الشابة الأخرى، رافضين الطقوس والشعائر التي تحجب اسم النورس «جوناثان»، ومحزونين من عبث الحياة وعُقمها، لكنهم على الأقل صادقون مع أنفسهم، شجعان بما يكفي لمواجهة حقيقة أن الحياة صارت بلا طائل ولا طعم.

وذات أصيل كان «آنتوني» يرفرف طائرًا فوق البحر، مفكرًا بلا حماسة في أن الحياة لا هدف لها، وبما أن الهدف بحكم تعريفه هو المعنى، فالحياة لا معنى لها، وهكذا يكون العمل الوحيد الملائم هو أن ينقضَّ هابطًا نحو المحيط حتى يغرق. فألَّا يكون موجودًا بالمرَّة خيرٌ له من أن يوجد كأنه طحلب البحر، بلا معنى ولا بهجة.

بدا له هذا كله معقولًا، منطقًا مبينًا، وقد حاول النورس «آنتوني» طيلة حياته أن يلتزم بالصدق والعقل ويتبعهما. سيكون عليه أن يموت عاجلًا أو آجلًا على كل حال، ولم يرَ ما يدعوه لإطالة ضجر الحياة السقيم.

وهكذا اندفع، من ارتفاع مائتي قدم، في انقضاض

مباشر صوب المياه، هابطًا بسرعة تقارب الخمسين ميلًا في الساعة. ووجد الأمر منعشًا وسارًّا على نحو غريب، لأنه قد اتخذ قراره أخيرًا، وعثر على الإجابة الوحيدة التي بدت معقولة على الإطلاق.

وفي منتصف الطريق تقريبًا من انقضاضه نحو الموت، بينما يميد البحر ويزداد ضخامة من تحته، سمعَ صوتًا عاليًا له صفير ينبعث من جهة جناحه الأيمن مباشرة، وقد مرَّ به نورس آخر يطير... يطيرُ ثابتًا كأنه واقف على الشاطئ. كان الطائر الآخر مثل شريط أبيض يتوهج هابطًا، مثل نيزك مغبش هبط من الفضاء. مذهولًا، ثنى «آنتوني» جناحيه ليكبح هبوطه وهو يتساءل بلا حيلة عما رآه.

وأخذ ذلك النورس الذي يشبه بقعة من ضباب، ينخفض في نعومةٍ ويُسر جهة البحر، وهو يومض كالبرق على رؤوس الأمواج، وعندئذٍ انثنى واقفًا فجأةً في ثبات تام، ثم صوَّب جسده نحو السماء مباشرةً مرتقيًا إياها من جديد، وراح يدور، دورانًا طويلًا بطيئًا رأسيًّا، وتقوَّس ليرسم دائرة كاملة شبه مستحيلة في الهواء.

تجمد «آنتوني» في موضعه، مراقبًا؛ وقد نسي أين كان، وتوقف من جديد. حدَّث نفسه بصوت مسموع:

أقسمُ، أقسمُ بكل شيء أن ذلك نورس! واستدار في الحال نحو الطائر الآخر، الذي كان من الواضح أنه لم يلاحظه. دعاه قائلًا:

ـ مهلًا!

ناداه بأعلى صوته:

ـ أنت! انتظر قليلًا!

ارتفع النورس في الحال على جناح واحد، منتقلًا بسرعة خارقة، وراجعًا إليه كالشعاع الساري. جذب «آنتوني» نفسه بشدة، في طيران خفيض، مائلًا قليلًا بشكل رأسي، وتوقف فجأة في الهواء، كما قد يتوقف متزلج على الأرض عند نهاية تل منحدر.

ـ تمهل!

كان «آنتوني» يلهثُ متقطع الأنفاس.

ـ ما... ما هذا الذي تفعله؟

كان سؤالًا سخيفًا، ولكنه لم يدرِ ماذا عساه أن يقول غير ذلك.

قال الغريب بصوت في صفاء الريح ومودة الهواء:

ـ أعتذر إذا كنتُ قد أفزعتك، لقد كنتُ أراك طيلة الوقت.

كنتُ أتمتع بشيءٍ من اللعب وحسب... ما كنتُ لأصدمك أبدًا.

ـ لا! لا! الأمر ليس هكذا.

كان «آنتوني» يقظًا وحيًّا للمرَّة الأولى في حياته كلها، وأيضًا مفعمًا بالإلهام:

ـ أي شيءٍ كان ذلك؟

ـ آه، بعض الطيران للمتعة، أظن. غطسة ثم توقف مفاجئ وبعده دوران بطيء مع اتساع الدوائر حتى القمة. بعض اللهو واللعب، لا أكثر، ولكن إذا أردتَ أن تحسن القيام به فهو يتطلب قليلًا من التدريب، ولكنه منظر يَسرُّ الأعين، ألا تتفق معي؟

ـ إنه، إنه... **الجمال** ذاته، هكذا هو! ولكنك لستَ واحدًا من طيور السرب بالمرَّة. فمن تكون، على أي حال؟

ـ يمكنك أن تدعوني «جون».

كلمات أخيرة

الفصل الأخير

ليس قصة مذهلة، وإن بدا كذلك.

كيف تبزغ المغامرة فجأة في عقل المرء؟ يقول الكُتاب الذين يعشقون عملهم إن اللغز والغموض جزء من السحر. لا تفسير إذن.

الخيال روحٌ عتيقة. شخص ما يهمس في النفْس، متحدثًا برقة عن عالم براق وما يسكنه من كائنات، لها ما لها من مباهج وأحزان، من خيبات وانتصارات، حتى تتم الحكاية في غاية من الجمال عدا أنها بلا كلمات بعد. يحرك الكُتاب الصورَ كأنها دوامة ليواكبوا الحركة التي يرونها، يتذكرون الحوار من بدايته إلى منتهاه. كل ما عليهم هو وضع الحروف، وعلامات الترقيم من نقاط وفواصل، وها هي القصة متأهبة لتهبط من السماء على مُنحدرات باعة الكتب.

لا تُكتَب القصص بفضل اللجان وقواعد النحو، فهي تنبثق من لغز يمس خيالنا الصامت، من أسئلة تُبقينا في حيرة لسنوات، ثم تهبُّ عاصفة من الإجابات فجأة من موضع مجهول، تنطلق السهام من قوس لم نره قَطُّ.

هكذا كان الأمر معي. حينما توقفت عن كتابة الجزء الرابع، كانت قصة النورس «جوناثان» قد تمَّت.

ظللت أقرأ الجزء الرابع المرَّة تلو الأخرى، في ذلك الحين. ولم يبدُ لي صادقًا أو حقيقيًّا بالمرَّة! فهل يمكن للنوارس التي اتبعت إجابات النورس «جوناثان» أن تقتل روح الطيران بالطقوس والشعائر؟

وقال الفصل إنه أمر ممكن، لكني لم أصدقه. وفكرت أن الأجزاء الثلاثة تحكي القصة بكاملها وكفى، فليست بحاجة إلى جزء رابع؛ تبدو فيه السماء مهجورة، وتتردد كلمات رثة لتخمد البهجة، أو تقريبًا هكذا. إننا في غنى عن طبع هذا الجزء.

فلماذا لم أحرقه إذن؟

لا أدري. لقد وضعته جانبًا، وظل هذا الجزء الأخير مؤمنًا بنفسه عندما لم أؤمن أنا به. كان يعلم ما رفضتُ تصديقه: أن حُكم العادة وسلطة الطقوس الفارغة ستفعل

فعلها ببطء بالغ حتى تقتل حريتنا في أن نحيا الحياة التي نختارها.

ومرَّ كلِ ذلك الوقت؛ نصف قرن، وطواه النسيان.

إلى أن عثرت «سابرينا» على القصة منذ فترة غير بعيدة، وجدتها مهلهلة، وكتابتها حائلة، وصفحاتها مهروسة تحت أوراق عمل غير ذات فائدة.

ـ أتذكُر هذا؟

أجبت:

ـ أذكر ماذا؟ لا.

وقرأتُ بعض الفقرات.

ـ آه، إني أتذكر، بدرجة ما. كان هذا...

ـ اقرأه.

قالتها بابتسامة للمخطوط العتيق الذي عثرت عليه بنفسها وأثر فيها.

كانت حروف الآلة الكاتبة قد بهتت، أما اللغة فقد كانت صدى بعيدًا للغتي، ومع ذلك، تعكس ما كنت عليه، في ذلك الوقت البعيد. لم تكن هذه كتابتي أنا، بل كتابته، الصبي ابن تلك اللحظة البعيدة.

انتهى المخطوط، وقد ملأ نفسي بالحذر والرجاء.

قال لي:

ـ لقد كنتُ أعرف ماذا أصنع! في قرنكم الواحد والعشرين هذا، وأنتم مطوَّقون بالسُّلطة والطقوس، ضاق الطوق حول أعناقكم حتى اختنقت حريتكم. ألا ترى؟ من المخطط أن يكون عالمكم آمنًا، ولكن ليس حرًّا.

لقد عاشَ قصته، فرصةٌ أخيرة.

ـ لقد انتهى زمني، لكن زمنك لم ينتهِ بعد.

فكرتُ في صوته من جديد، الفصل الأخير. هل كنا نحن النوارس التي تشهدُ نهاية الحرية في عالمنا؟

يجيبُ الفصل الرابع، والذي طُبع أخيرًا وانضم إلى حيث ينتمي، قائلًا لنا: ربما لا. لقد كُتب حينما كان المستقبل مجهولًا، في علم الغيب، لكنه لم يعد كذلك الآن.

ريتشارد باخ
ربيع ٢٠١٣

هذه حكاية الذين يتبعون قلوبهم، ويصنعون قوانينهم الخاصة؛ الذين يستمتعون بعمل الأشياء بدقة وأمانة، حتى لو كانت لأنفسهم فقط؛ الذين يعرفون أن في هذه الحياة ما هو أغلى مما تراه أعيننا: هؤلاء سيطيرون مع «جوناثان» أعلى وأسرع وأبعد مما كانوا يحلمون.

قصة «جوناثان ليفنجستون» هي قصة نورس تغلَّب على حدود طبيعته، وعلى مجتمعه، ليصل إلى المراتب العليا من المعرفة، وليعود بها إلى أقرانه فينشر ما عرفه.

تربَّع هذا الكتاب لعدة سنوات على قائمة الكتب الأكثر مبيعًا، وما زال يُلهم الملايين منذ صدوره.

تشمل هذه الطبعة الجديدة الكاملة الجزء الرابع الذي لم يُنشر قبل عام ٢٠١٣، ورسالة من المؤلف.

ISBN 9789776467606
9 789776 467606
الكرمة